فجر التاريخ

أحمد زكي بدوي

الى المؤمنين بالانسانية

الى الباحثين عن الحقيقة

الى الراغبين فى التحرر من قواصر الجياة



مقدمة

ليس هذا الكتاب فى الواقع الا خلاصة الانتروبولوجيا Anthropology أى علم وصف الانسان . وهذا العلم يبحث فى تاريخ الأنواع البشرية على ضوء فكرة التطور باعتبار أن الماضى يشمل بذرة الحاضر والمستقبل . وهو يتناول دراسة الانسان جسما وروحا فى جميع الأزمان والمناطق . وبعبارة أخرى هو التاريخ الطبيعى للأنواع البشرية .

إذا كانت الانتروبولوجيا موضوع هذا الكتاب ، بينما عنوانه (فجر التاريخ) فذلك لسببين . أولهما أن الترجمة الحرفية لكلمة Anthropology (علم وصف الانسان) غير مألوفة فى اللغة العربية وترمى إلى معنى يبعد كثيراً عن مضمونها الحقيق . أما السبب الثانى فيرجع الى أن الانتروبولوجيا حصرت

اهتمامها فى الجماعات الفطرية أى ذات الثقافة البسيطة . وهى التى نطلق عليها الجماعات المتوحشة . وأهم سبب لذلك أنه قلما يلتفت إنسان لتطبيق نظرية التطور على التاريخ مادام هـــذا التطبيق على الجماعات الغريبة عنا . ولكن اذا طبقت نظرية التطور على تاريخنا الحديث . فان ذلك يقاوم باعتباره وقاحة . لذلك انحصرت ابحاث الانتروبولوجيا فى تاريخ الثقافات الأولى والفطرية التى هى بمثابة فجر الحضارة وبالتـــالى فجر التاريخ . ولكن رغم أن فكرة التطور لم تطبق الا على الجماعات البدائية فان الباحثين فى هذا العلم لم يدخروا وسعاً فى دراسة تاريخ الانسان بأكمله ، عاملين على أن لايكون هناك تاريخ للجماعات الفطرية وآخر لنا . بل تاريخ واحد يقوم على مبـــدأ تطورى واحد لجميع الناس متمدينين وفطريين معاصرين وقدماء .

وتنقسم الانتروبولوجيا إلى قسمين أولها الانتروبولوجيا الطبيعية Physical Anthropology وتدرس الانسان كحيوان وعلاقته بباقى المخلوقات الحية ومكانه فى الطبيعة وتركيبه البدنى وأعمـاله العضلية والعقلية على ضوء علم التشريح المقارن وعلم وصف الأعضاء وعلم الأنسجة Histology وتبحث عن قدم الانســـان كما تدل عليه بقاياه . وتقوم بالدراسة المقارنة للصفات الطبيعية التى تميز الاجناس المختلفة للنوع البشرى ونمو الانواع البشرية وتفاعلهـا مع البيئات الطبيعية المختلفة بالنسبة للأغذية الموجودة بها وقدرة النوع على مقاومة المناخ والمرض .

وتبحث الانتروبولوجيا الاجتماعية Social Anthropology
فى الانسان الأول من الوجهة الأرخولوجية Archoeolgical
على ضوء بقايا مصنوعاته وعن كل مايتعلق بخواص ومؤثرات
عصور ماقبـــل التاريخ واستمرار تفوق الاحوال الثقافية
على توالى العصور وتهتم من الناحية التيكنولوجية بالدراســة
المقارنة للفنون والصناعات : نشوءها وتطورها وتوزيعها
الجغرافى ، ثم تدرس الانسان كحيوان إجتماعى بالبحث المقارن
عن المسائل والنظم الاجتماعية : الميلاد والتعليم والزواج والموت
والعادات والتقاليد والنظم والقبائل والجماعات المختلفة والحكومة
والقانون والاخلاق . وممارسة السحر والدين . ومن أهم أبحاث
هـــذا القسم الدراسة المقارنة للغة وتطورها وتقسيم الأنواع
البشرية وفقاً للأحوال الطبيعية والثقافية .

تتنوع طرق البحث فى الانتروبولوجيا لتشعب نواحى العلم
المختلفة لأنه من العــلوم المشتركة . لذا يجمع الباحث حقائقه
من علوم الحيـــاة والجيولوجيا والآثار والنفس والاجتماع ،
وتتناول علوم الحيـاة الانسان بالدرس والبحث . فاذا ما أردنا
أن ندرس الانسان كفرد رجعنا إلى علم الأجنه Embryology
وعلم تكوين الأجسام Morphology وعلم وظائف الأعضاء
Physiology فكلها خاصة بنشوء وتطور الفرد Ontogeny
واذا ما أردنا ان ندرس بمجموعة الأحياء رجعنا الى علم الحيوانات
الحفرية Palaeontology وعلم التصنيف Taxonomy وعلم

التجمع الفيزيولوجى Ecology وكلها خاصـــة بنشوء الجماعات وتطورها Phylogeny وتستخدم الجيولوجيا فى ابحاث ما قبل التاريخ ، لأنها تدلنا على عمر الطبقات الأرضية فتحدد الزمن الذى كان يعيش فيه أصحاب البقايا الموجودة فى هذه الطبقات وتخدمنا الأرخولوجيا فى التمييز بين آثار الانسان ومصنوعاته المختلفة ، ويعتبر علم النفس عمدتنا فى كل ما يختص بنفسية الانسان وبكل مايؤثر عليها . أما علم الاجتماع فيمدنا بأوثق الحقائق عن صور الجماعات وأثرها فى الفرد وصلته بها . هـــذه هى العلوم التى تستخدم فى ابحاث الأنثروبولوجيا والذى يحاول بهـــا عالم الانثروبولوجى أن يكون مؤرخا ذا نظر بعيد جامعاً بين التاريخ المدون بالسنين Recorded History والتاريخ الأول الذى يحسب بالقرون Proto-history وما قبل التاريخ وهو مايحسب بآلاف السنين Pre-History

وليس من شك فى وجوب النظر الآن ، وقبل أن نبدأ بحثنا ، عن الدافع الذى من أجله ندرس الانثروبولوجيـــا والفائدة التى قد نجنيها من هذه الدراسة . وأما لماذا ندرسها فذلك لأن الانسان المتمدن يصبح بدراستها أكثر مدنيـة وتفوقاً . وهى تساعد على رقيه بتحديدها مركزه زماناً ومكاناً ، وتقدم له كل الحقـائق المتعلقة بعقائده وتقاليده ، فيترك منها ما يعوق قانون التطور ويحتفظ بما يساعده .

وبدراسة الانثروبولوجيا تكمل معرفتنا بالانسان فيمكننا أن نخدمه على الوجـــه الأوفى ، شأننا فى ذلك شأن المدرس لا يستطيع أن يربى الطفل مالم يكن على علم تام بعلم النفس . ونحن من جانب آخر لايسعنا اصلاح الجماعات مالم نكن ملمين بكل الحقائق التى تتعلق بنشوءها وتطورها .

وعسير أيضاً على أغلب قراء التاريخ فهم كنه العقائد والتقاليد الشائعة فى المدنيات القديمة على وجهها الصحيح. فهم يواجهونها كمسائل معقدة مبهمة. فمن أجل هذا كان من أغراض دراستنا التاريخ الانسان الطبيعى تبين التأويلات الحقيقية لهذه المعتقدات والتقاليد .

ولما كان العالم فى مساره تقوده العلوم وتخضعه لتكيفاتها ـ فبعـــد أن كان آلياً عندما كانت العلوم الميكانيكية والطبيعية منتصرة ، وبعد أن كان عضوياً وحيوياً عندما كان التفوق لعلوم الحياة ـ فقد بدأ يميل الآن إلى أن يكون روحياً اجتماعياً بالتقدم المشاهد فى علوم النفس والاجتماع . وعلى ذلك تحقق دراسة الانثروبولوجيا شطراً عظيماً من هذا التقدم .

وتاريخ الانثروبولوجيا متصل بتاريخ علم الحياة Biology الذى بذغ فى أوائل القرن الثامن عشر على يد لامارك ، حيث أثبت فى كتابه (فلسفة الحيوان) Zoological Philosophy أن الحيوان يجاهد فى سبيل أن يتطور ليرضى بذلك حاجات جديدة تظهر فى أفقه وبيئته وتنشىء هذه الحاجات المستحدثة

فى الحيوانات أعضاء جـــديدة يكون نماؤها بنسبة استعمالها .
ثم تنتقل صور النشوء المستجدة فى الحيوانات الى الأعقاب .

وفى أواسط القرن التاسع عشر أصدر داروين كتابه (أصل الأنواع) فكشف به أعظم أسرار النظـــام النشوئى الذى كلت دون الافصاح عنه جهود الباحثين والفلاسفة منذ عصر أرسطو . حيث افصح عن مؤثر النشوء الميكانيكى بثلاث حقائق دائمة التأثير فى طبائع الكائنات الحية ، فى التناحر على البقاء بين العضويات ، وفى بقاء الأصلح ، وفى الوراثة .

ولما أن تبدلت آراء المفكرين فى المسائل المتعلقة بأصل الكون ونظامه ، أحييت وانتعشت كثير من الحقـــائق العلمية التى تجمعت على مر الزمان . كما أن الحقائق التى لم يعرف لها العلماء معنى أو فائدة ، قد فسرت وعرفت معـــانيها الصحيحة من معجم الطبيعـــة . فظهرت على أثر ذلك الكتب المبتكرة الناضجة أهمها ما كتبه وولاس وهكســـلى وغالتون وتندول وهيكل ولابول وبيجهوت ولويس وغيرهم .

ومنذ ذلك الوقت اتجهت العلوم إلى الانتقال من وجهتها التصنيفية إلى الوجهة النشوئية . وبعبارة أخرى أن العالم وإن كان لا يغفل تحليل الظواهر الطارئة والجارية وتبويبها بمقتضى قوانين وصيغ رياضية إذا أمكن ، فقد صار يشتد اهتمامـــه بالكيفية التى جرت بها هـذه النواميس بالفعـــل والآثار التى

أحدثها حتى بلغتنا . وبالجملة فان عامل الزمن قد صار له من الخطر فى جميع النواحى ما لم يكن له من قبل .

فلما جاء سبنسر بعد داروين عمم النظرية حتى جعلها تشمل الهيئة الاجتماعية الانسانية وأظهر كيفية انتقالها بالتدرج من الوحشية إلى المدنية ، وكيف أنها دائمة التطور شأنها فى ذلك شأن النبات أو الحيوان .

ومنذ ذلك العهد أخذ علم الانتروبولوجيا يظهر تدريجياً على يد أنصار نظرية التطور . ونخص بالذكر منهم تيلور وفرازر ومورجان وكراولى ووسنر مارك وهارتلاند وركلاس .

ويجدر بنا الآن أن نوضح المقصود من فصول هذا الكتاب خصوصاً وأنها موضوعة بنظام يختلف قليلا عن أغلب كتب الانتروبولوجيا . فالفصول الثلاثة الأولى أى التاريخ الجيولوجى والبيولوجى والانسان الأول تبحث فى المحيط الأرضى والحيوى وبعبارة أخرى القوى والكائنات الجامدة والحية . أما بقية الفصول فموضوعها المحيط الاجتماعى أى أشكال الاجتماع البشرى الممثلة فى مظاهر نتيجة الميراث الاجتماعى وهى الأسرة والدين والقانون والاخلاق والفن والمعرفة . وقد وضع الفصل عن الأخير الحضارة المصرية لأنها أصل المدنية ومصدرها ، وذلك تحقيقاً لأهم أغراض الأنتروبولوجيا ، وهو تدوين التاريخ على الأسس العلمية .



من صورة هذا السديم الذى يرى فى السماوات يمكننا أن نعرف
شيئاً عن أصل السديم الشمسى قبل أن تنفصل عنه الأرض

التاريخ الجيولوجى

السديم (Nelbula) هو تركيب بعض الأجرام السماوية ، يرى فى السماء على شكل سحابة صغيرة . والمجموعة الشمسية كانت فى أول الأمر سديماً حاراً يملأ الفضاء ما بين مركز الشمس الحالى وأبعد الكواكب المعروفة عنها . ولما كان هذا السديم يبرد بالأشعاع كان انكماشه تدريجياً فترك من آن إلى آخر حلقات سديمية انفصلت عنه الواحدة تلو الأخرى ثم تركزت كل حلقة منها حول نقطة معينة . وقد أخذت هذه الحلقات أى الأجرام تبرد تدريجياً . غير أن الشمس كانت قلب السديم وأجسامها ما زالت ملتهبة . وما صغر عنها كالمشترى ما زال فى حالة سائلة . وما كان متوسطاً كالأرض أصبح يابساً آهلا بالسكان ، وما كان صغيراً كالقمر قد جمد وجف وأصبحت الحياة عليه غير ممكنة . وعلى ذلك كانت الأرض أحد أجزاء السديم الشمسى .

التاريخ الجيولوجى قديم جداً . وللحصول على فكرة صحيحة عن الحوادث التى تعاقبت على ظهر الأرض تدرس الصخور التى تتكون منها القشرة الأرضية ، وذلك بترتيب تعاقب الصخور ودراسة كل منها دراسة دقيقة لتعرف

الظروف التي أحاطت بتكوينها وما تأثرت به بعـــد ذلك من عوامل .

والذى يهمنا هنا دراسة نشوء وتطور الأحيـاء فى العصور الجيولوجية . وللوصول إلى ذلك نعتمد على الحقـائق التى تمدنا بها الحفريات . والحفـــريات (Fossils) تدل على كل شيء من أصل عضوى : نباتى أو حيوانى ، دفن ضمن الرواسب المكونة للصخور الراسبة وقت تكوينها . وقد تكون الحفرية عبارة عن الحيوان أو النبات محفوظاً بجميع أجزائه ، أو مجرد الجزء الصلب من الحيوان أو النبـات ، أو مجرد الأثر أو الطابع الذى يتركه أحدهما .

وتقوم الحفريات بخـــدمة هامة فى التعرف على التـاريخ الجيولوجى للكرة الأرضية وقد اتخذت أسـاساً لتقسيم الزمن الجيولوجى إلى عصور . كما أنها تدلنـــا على توزيع البحـــار واليابسة فى كل عصر من عصورها الجيولوجية الغـابرة . وتشير إلى الحالة الاقليميـــة والجوية فى تلك العصور بفضل اختلاف أنواع الحياة باختلاف الأقاليم .

وقد دلت المشاهدات فى مختلف انحاء الارض على أن أحدث الطبقات الصخرية العليا تحتوى أنواعاً من الحفريات لاتختلف إلا قليلا عن الأنواع التى لاتزال تسكن الارض

والبحار فى الوقت الحالى . وأننا كلما تعمقنا إلى طبقات اقدم فأقدم وجدناها تحتوى أقل فأقل من هـــذه الأنواع الحية ، مع تـكاثر أنواع أخرى بائدة . وهكذا تندثر هـــذه الأنواع البائدة من الطبقات التى تحتها وتأخذ مكانهـا أنواع بائدة أخرى وهـــلم جرا .

فالحياة منذ خلقتها الأولى فى تغير وتحول بطيء مستمر . وقد نشأت تدريجيا من الأنواع الفطرية البسيطة الأولى أنواع أرقى فأرقى حتى نشأت أرقى أنواع المخـــلوقات ذات النظام الجسمى المركب . ولا شك أن التغيير الذى يحدث فى هـــذا النوع الأخير من الـكائنات هـــو فى أول الأمر دقيق غير محسوس إلا أنه يتضاعف بالوراثة مع تعاقب الأجيـــال حتى يؤدى فى النهـاية إلى تغيير تام فى تركيب الحيـوان أو النبات . على أن الزمن الذى يتطلبه اتمام هذا التغيير قد يقدر بآلاف أو ملايين من السنين ويتنـاول أجيالا عديدة متعاقبة . ويكون حينئذ كل جيـل من هذه الأجيـال حلقة فى سلسلة التغيير من نوع لآخر . فاذا اعتبرنا أن كل جيل يترك أثره فى بطون الطبقات التى تـكون معاصرة له ، فمن الجـــلى أن كل طبقة أو مجموعة متعاقبة من الطبقات تتميز عما يليها بأنواع خاصة من الحفريات .

وإذا كان التـاريخ الجيولوجى سلسلة متصـلة من الحوادث

تعتمد كل واحدة منها على ما سبقها وتمهد السبيل لما يعقبها فإن دراسة هذا التاريخ كشأن كل الدراسات المماثلة تتطلب لسهولة أجرائها تقسيم الزمن الجيولوجى إلى أقسام يمتـــاز كل منها بصفات وحوادث معينة :

الحقب الابتدائى (الاركى) Archaean Era (٥٥٪ من مجموع الزمن الجيولوجى)

يبدأ الحقب الاركى وقد أصبحت الأرض وحدة كروية مستقلة ذات قشرة خارجيـــة من صخور جرانيتية وتجعدت هذه القشرة بالانكماش الناتج عن البرودة فبرزت منها أجـــزاء هي القارات وانخفضت أجـــزاء أصبحت أحواض المحيطات بفضل ماتجمع فيها من الميـاه التى تقطرت بالبرودة من الأبخرة التي كانت تحيط بهذا الكوكب فى حالة نشأته الأولى .

وتعرضت القارات الى عوامل التعرية فتفتتت صخورهـا ثم اكتسحت المواد المفتتة الى البحار والمحيطـــات من جراء بعض عوامل الطبيعة كالرياح والأمطـار والأنهـار ، فتكونت الرواسب على قيعان البحار ومن ثم بدأ تكوين الصخور الراسبة ، وهى أقـــدم الطبقات المعروفة فى القشرة الأرضية وليس بها أى أثر يمكن الجزم بأنه لنوع من أنواع الحياة .

حقب الحياة القديمة (الباليوزوى) Palaeozoic Era (٣٠٪ من مجموع الزمن الجيولوجى)

أغلب الصخور الراسبة التي تكونت في بحار ذلك الحقب تحتوى على حفريات حيوانات ونباتات تختلف كل الاختلاف عن أنواع الحياة المعروفة الآن . ومن أهم هـذه الحيوانات الجرابتوليت Graptolites والتريلوبيت Trilobites وبعض الشعاب المرجانية والحيوانات المحارية . وقـد كانت الأسماك أولى الحيوانات الفقـرية التي ظهرت في البحار ابان ذلك الحقب . ومنها نشأت أنواع الأمفيبيا Amphibia أى الحيوانات البرمائية .

أما النباتات فلم تظهر منها في أول الأمر إلا أنواع بحرية دنيئة ثم بدأت بعـد ذلك بزمن طويل النباتات الأرضية . ومن أشهرها السرخسيات Ferns والليـدودندرون Lepidodendron والسجلاريا Sigillaria

حقب الحيـاة الوسطى (الميزوزوى) Mezozaic Era
(١١ ٪ من مجموع الزمن الجيولوجى)

كان هذا الحقب فترة سكون وهـدوء لم تتعرض القشرة الأرضية فيه لمثل ما تعرضت له من حركات أرضية عنيفة إبان الحقب السابق . ولم تكن الأرض فى غضون هـذا الحقب المتوسط مسرحا لتفاعلات بركانية . وقد تكونت فيه طبقات من الصخور تحتوى انواعاً من النباتات والحيوانات تعتبر حلقة بين القديم والحديث فمن الحيوانات الامونيت Ammonites

والبلنيت Belemnites وقد بدأت مع ابتداء ذلك الحقب واندثرت قبل انتهائه فاصبحت من أخص مميزاته . ومن الحيوانات الفقرية الأسماك التي ارتقت عن الأنواع التى عاشت فى العصور القديمة فاستبدلت ورقتها العظمية الخارجية بقشور قابلة للأنثناء وهذه لاشك جعلت للأسماك حرية أكبر فى حركتها ، فكانت اكثر شبها بالأسماك التى نعرفها الآن . ومن امفيبيا العصور القديمة نشأت الزواحف Reptiles التى انتشرت وتكاثرت فى هذا الحقب فبلغت أكبر شأوها . وقد بلغ بعضها حجما عظيما كالاكثيوسور Ochthysaurus والبليزيوسور Plesiosaurus والاجيوانودون Iguanodon والبرنتوسور Brontosaurus والديبلودكوس Diplodcus

وبدأ ظهور الحيوانات الثديه Mammals فى أواخر هذا الحقب على أنها كانت قليلة الأهمية من نوع الكنجارو Marsupials

وكانت نباتات ذلك الحقب من أنواع أرقى من نباتات الحقب السابق فتضاءلت الأنواع غير المزهرة التى كانت تزدحم بها غابات العصر الكربونى وأخذت مكانها أنواع من المخروطيات Cycads & Conifers لاتزال مثيلاتها تنمو الآن فى المناطق الباردة . ثم بدأ فى أواخر ذلك الحقب ظهور

النباتات الزهرية Angiosperms فكان منها انواع النخيل والماجنوليا وغيرها مما فاقت جميع أنواع النباتات فى العصور الجيولوجيه الحديثة .

حقب الحياة الحديثة (الكاينوزوى) Cainozoic Era
(٤ ٪ من مجموع الزمن الجيولوجى)

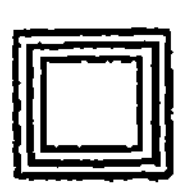
بدأت تظهر فيه أنواع من الحياة على وجه الأرض تشبه كثيراً الانواع التى تسكنها الآن . وأخذت تتزايد نسبتها وتزداد شبها بالمجموعة الحالية كلما تقدمنا فيه . فأخذت أجناس الامونيت والبلمنيت التى اختصت بها العصور الجيولوجيه الوسطى تندثر شيئا فشيئا قبل بزوغ الحقب الحديث وكذلك بادت الزواحف الكبرى التى تفوقت فى تلك العصور على باقى الحيوانات ولم تترك وراءها من تلك الفصيلة سوى أجناس قليلة الأهمية صغيرة الحجم هى التى بقيت على وجه الأرض الآن كالسحالى والتماسيح والأفاعى .

ومن أخص مميزات انواع الحياة فى ذلك الحقب النوموليت Nummulites والسريثيوم Cerithium ومن الحيوانات الفقرية امتازت الثدييه Mammals فتفوقت على باقى أنواع الحيوانات جميعا وقد نشأ الفيل من الماستودون Mastodon ونشأ الحصان من حيوان يمشى على أقدام ذات خمسة أصابع ، الباليوتيريوم Palaeotherium ومن أنواع

الليمر Lemurs التي عاشت في اوائل ذلك الحقب نشأت القردة في أواسطه .

ولم يأت آخر الحقب حتى بدأت تظهر على سطح الأرض أنواع من الحيوانات تجمع بين صفـــات القرد والانسان Pithecanthropus

وبلغت المملكة النباتية مالم تكن قـــد بلغته قبل ذلك من تنوع أجناسها وانتشارها وتوزيعها . وانتشرت النباتات المزهرة كالنخيل والكافور وغـــيرها . فلما انتصف الحقب تغيرت الحـال وظهرت أنواع البلوط وما يشابهها من نباتات المناطق المعتدلة .



التاريخ البيولوجى

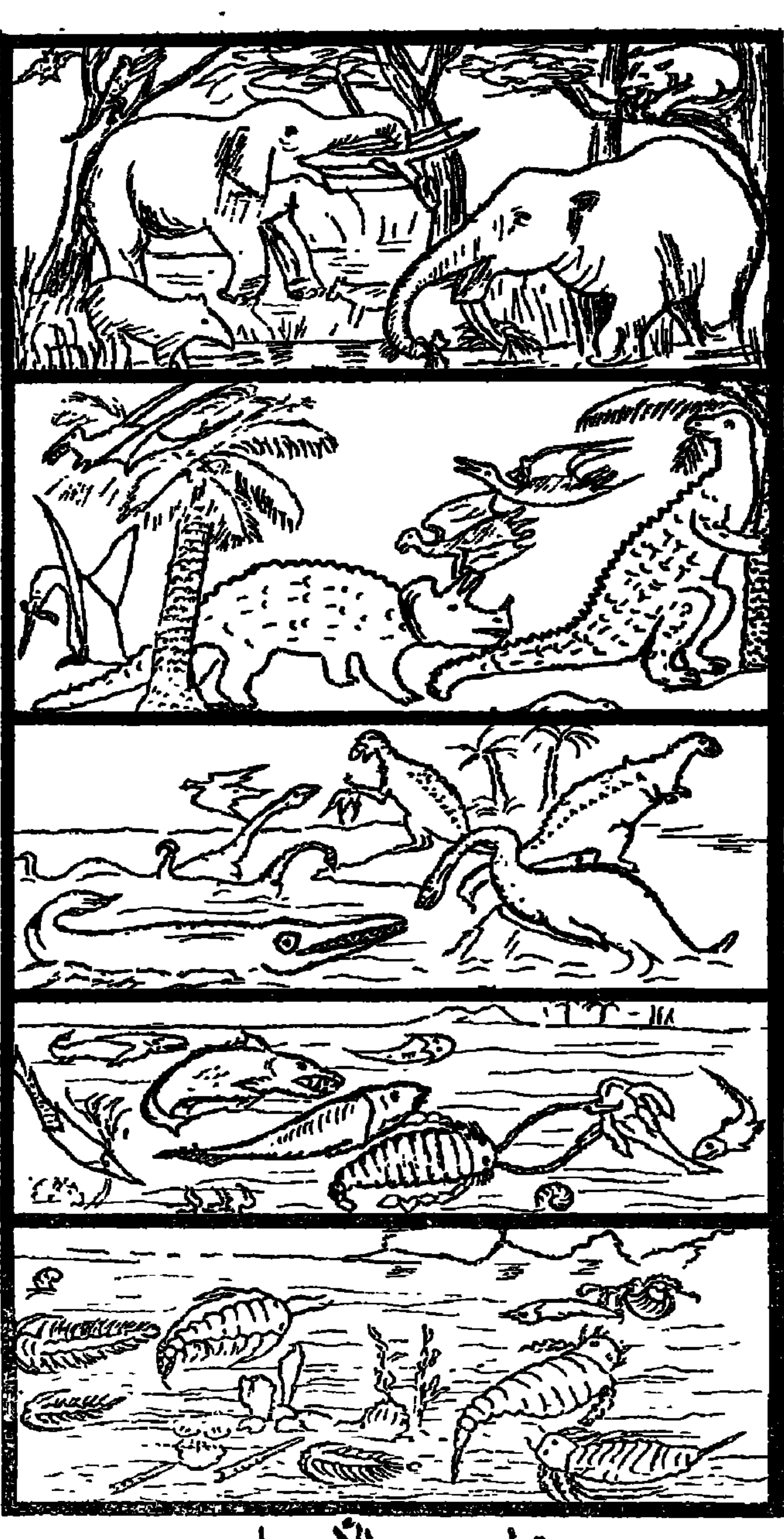
الحقيقة التى يعتمد عليها التاريخ البيولوجى هى أن جميع أشكال الحياة فى العالم متصلة ببعضها . وإن الاتصالات الممثلة فى الزمن والفضاء بين الاحياء المختلفة تخضع لمبدأ واحد هو قانون التطور .

وأول خطوات التطور نشوء المخلوقات الحية البسيطة Protists على سطح الأرض من مواد غير حية ، أى من مركبات كربونية نصف سائلة بتأثير بعض الخمائر . ولا يمكن تعيين انتسابها الى المملكة الحيوانية أو النباتية ، فهى ليست إلا كريات مجهرية من مادة البروتوبلازم الحية . لاتختلف عن أبسط أنواع البكتريا فى الوقت الحاضر إلا بكونها تستطيع المعيشة فى الهواء والماء والأملاح الذائبة على السواء . ويظن أن العضويات البحرية الأحادية الخلية نشأت من هذا الأصل وكانت قادرة على صنع الكلوروفيل أو مايشابهه وربما كانت هذه الوحدات الصغيرة الحية محاطة بغلاف سيليولوزى ، غير أن طاقتها الكامنة عظمت فتمخضت عن ذنيبات أو شعيرات Flagella صغيرة مكنتها من تسيير نفسها فى الماء للتفتيش

عن الغذاء. ولا يزال من أمثـال هـــذه العضويات كثير فى الوقت الحاضر.

وقد ولدت الأحياء الأولى سلسلة أخـــرى من المخلوقات المفترسة البسيطة لم يكن فى وسعها أن تـكوّن المـادة العضوية ـ الغذاء ـ من الهواء والماء والأملاح، فكانت تعيش على افتراس ما يجاورها من العضويات. وهـــذه الوحدات كانت عديمة الغلاف السيليولوزى بحيث يسهل للمادة الحية أو البروتوبلاسم القيام بالعمليات الحيوية المتنوعة على مانراه الآن فى الاميبا أو فى كريات الدم البيضاء وغيرها.

لو كان فى مقدور الطبيعة أن تجعل الحى ينمو الى مالا نهاية بحيث لايموت من كبر حجمه لمـا احتاجت الى الاحتيال لبقائه وتخليده بواسطة النسل. وعلى ذلك يبتدأ التناسل فى الأحيـاء الدنيـا Protozoon بالانقسام الى شطرين أو أكثر. ثم تنتشر الانسال وتعيش منفصلة بعضها عن بعض، وإذا طال الانقسام على الخلية عمدت الى الاندغام بخلية أخرى فيصيران خلية واحدة، وذلك بدافع الجهد الأقل، فتنشط هـذه الخلية. ومن هنا يحدث التخصص فتصبح بعض الخلايا جرثوميـة أو تناسلية ويصير البعض الآخر خلايا جسدية. وهذه الكفايات تجعل الحى أسرع فى التطور، لأن الذى ينتج عن تلاقح فردين مختلفـين عانى كل منهما ظروفاً وكابد أحوالاً لم يعـانها الآخر،



تطور الأحياء

يحصل على امتيازات لا يحصل عليها ذلك الذى نشأ من فرد واحد .

أخذت الأجسام بعد ذلك تميل الى التركب . فقد كانت الأحياء الأولى خلايا مفردة تتوالد بالانقسام . ثم ظهرت أنواع الاسفنج ثم المرجان وغيرها مما يسمى بالحيوانات الجوفاء . لأنها مؤلفة من طبقتين من الخلايا حول كيس أجوف . ومنذ ظهور هذه الأحياء أخذت الأجسام تتطور وتتخصص أعضاؤها .

ومن الخطوات الجوهرية فى التطور اتخاذ الحيوان شكلا ذا جانبين . فان الاسفنج لم يكن له شكل منتظم . وكذلك الحيوان الاجوف كالقنديل والشائك كخيار البحر ونجمة البحر فكانا كلاهما كروى الشكل تقريباً يكاد شعاعيه يكون مستديراً له أطراف كالاشعة . أما ظهور الحيوانات بجانبين كالديدان والحشرات ، فانه سهل عليها الحركة . لأن الحيوان ذا الجانبين قد صار له بهذا الشكل رأس وذنب . ومن شأن هذا التركيب تخصيص الكفايات فى أمكنة خاصة من الجسم . وذلك بأن يحتوى الجانب الذى تتجه به على أهم الحواس .

ومن الخطوات الكبرى أيضاً ظهور الفقريات أى الحيوانات التى لها عمود فقرى . فقد أخذت الحيوانات الفقرية تتقدم تقدماً رائعاً فى جملة نواح من تركيب الجسم ، وتأهيله للتنازع على البقاء . وبخروج الفقريات الى اليابسة ظهرت الحيوانات البرمائية . ثم ظهرت الزواحف ومنها تفرع فرعان ، أولهما الطيور

وثانيهما الثدييات. وكان ظهور الثدييات فى الطبيعة من الانقلابات العظيمة لأن منها نشأ اللمور ثم القرد وأخيراً الانسان.

وأول الدرجات العقلية فى الأحياء هى الأفعال الانعكاسية Reflex Actions وتصدر عن أجهزة معينة من حجيرات عضلية تسهل اصدار أجوبة ملائمة وصحيحة على المؤثرات الخارجية.

وتلى هذه الدرجة الأفعال الاتجاهية Tropisms وهى حركات أو أعمال يقوم بها الحيوان حرصاً على تنظيم بدنه الكلى وإحداث التوازن الفيسيولوجى بالنسبة إلى الجذب والضغط والتيارات والرطوبة والحرارة والضوء والكهربائية.

وعندما ارتقت الحيوانات خطوة أخرى، كان لها سلوك غريزى Instinctive وصل إلى درجة مدهشة فى الكمال فى النمل والنحل والزنابير. ويعرف عن هذا السلوك أنه يتوقف على مؤهلات فطرية، فلا يحتاج إلى تعلم. وهو مستقل عن التمرين والاختبار ولو أنهما يهذبانه.

وتقدم الحيوان فى سلم التطور خطوة أخرى، فكان له سلوك ينم عن الذكاء والادراك، هو السلوك الغريزى المدرك Intelligent. فأخذ يستفيد من الاختبار ومن التعلم بالتلقين أيضا. وتتنوع الأفعال المنطوية على ذكاء بتنوع الأفراد، وهى قابلة للتحوير والتعديل بطرق قلما يصح

تطبيقها على الغرائز التى لا يمكن لأى كائن حى أن يستغنى عنها بدون أن ترتبك عليه الحياة وتتعقد عليه مشاكلها. فضلا عن ذلك فان السلوك الغريزى المدرك غير مقيد بظروف خاصة، كما هو شأن السلوك الغريزى. وهناك أدلة قاطعة على أن السلوك المدرك ناتج عن علم بقيمة العلاقات الكائنة بين الأشياء.

والقانون السائد خلال هذا التطور هو قانون التنازع على البقاء وبقاء الأصلح. فالصفات المفيدة للنوع يبتدىء وجودها فى بعض الأفراد ثم تستقر فى طبائع العضويات استقراراً كلياً.

لذا كانت الحياة فى عالم الحيوان حرباً وجهاداً مستمرين فى التنازع على البقاء وتتنوع أسلحة هذه الحرب، فالسم فى الحية علة حياتها، تهاجم وتدافع به عن حياتها فى معترك البقاء والتنازع وليس لها رجل أو يد.

ومن الأسماك ما يعرف بالرعاد، سلاحه بطارية كهربائية طبيعية فى جسمه كافية لقتل أى حيوان آخر. وتفرز السيبيا (السيدج) مادة سوداء تنتشر على وجه الماء فيتوارى تحتها ريثما يجد إلى النجاة سبيلا.

ولبعض الحيوانات الصغيرة مثل الهيدرا أو قريص البحر ملايين من الأعضاء الدقيقة الصغيرة المسماة بالخلايا اللاسعه

وهى تعتبر أعضاء دفاعية هجومية .

وهناك خنافس تسمى بالخنافس المدفعية ، لأنها عند ما تهاجم تفرز من مؤخر جسمها سائلا ينفجر إذا اتصل بالهواء .

وكذلك اختلاف ألوان الحيوان بعضها عن بعض ، من قبيل التوسل والاحتيال للبقاء ، فالحيوانات الصحراوية تكون غالباً رملية اللون ، كما أن حيوانات القطب الشمالى تكون ثلجية البياض . هذه التغييرات وأشباهها تحدث لكل صنف من الحيوانات حتى يلائم البيئة التى يعيش فيها .

ومن وسائل البقاء تشابه بعض الحيوانات الضعيفه لحيوانات أخرى لها من الوسائل ما تدافع به عن أنفسها . كنوع من الدود يشبه الحية من بعض الوجوه ، فمع أنه عديم الأذى إلا أن العصافير تخافه ولا تجسر أن تقربه بل تفر منه على اعتبار انه حيات سامة . وبعض الفراش الذى لا رائحة له يتقلد بشكل فراش كريه الطعم والرائحة ليسلم من مناقير الطيور . وبعض العناكب يتشبه بالنمل المؤذى . وتتشبه عدة حشرات صغيرة بالشفافير والزنابير المشهورة بلسعاتها .

وشواهد التطور عديدة ، نراها بوضوح على ضوء الحقائق التى تقدمها لنا علوم التشريح المقارن والحفائر والأجنة . ومن هذه الحقائق ما يلى :

مما يثبته علم التشريح المقارن ـ وجود حيوانات دقيقة بسيطة التركيب يعقبها حيوانات معقدة أكثر من الأولى قليلا ، ويعقب هذه أخرى أكثر منها تعقيداً وهكذا ترتبط العائلات والرتب بعضها ببعض فتكون وحدة تنتسب كل أجزائها لبعضها . ويدلنا ذلك على أن الحيوانات الراقية تطورت عن الحيوانات البسيطة . ويشاهد هذا التطور فى فى تشابه بعض الأعضاء فى حيوانات مختلفة من رتب مختلفة فى التركيب مع اختلاف فى الوظيفة . فزعنفة الحوت وجناح العصفور وجناح الخفاش وقائمة الحصان الأمامية وذراع الانسان مؤلفة من عظام متشابهة شكلا ووضعاً ومتساوية عدداً مع اختلاف فوائدها وكيفيات استعمالها وتفاوتها كبراً وحجماً . فتحول الأعضاء من شكل إلى آخر ينتج عن تحول وظيفة العضو ، كما أن عدم الحاجة اليها قد يؤدى إلى اندثارها .

وتعتمد أهم شواهد التطور على علم الحفائر Palaeontology حيث يرينا الاختلاف البين بين حفائر الحيوانات الموجودة فى الصخور القديمة وحفائر الحيوانات الموجودة فى الصخور الحديثة . فأقدم الصخور تحتوى على أبسط أشكال الحياة بينما الصخور الحديثة تشمل الأنواع الراقية ، ويستنتج من ذلك أن الأنواع الأخيرة لم تكن موجودة عند تكون الصخور

القديمة . فاذا ما اختبرنا بالتدريج الصخور القديمة فالأقـــدم ، نجد أن بقايا الأنواع الموجـــودة تقل شيئاً فشيئاً حتى تختفى ، بينما تزداد تنافراً بقايا الأنواع المغـــايرة . فأنواع الحيوانات المعاصرة لم تكن موجودة منذ بدء الحياة على الأرض ولكنها ظهرت تدريجياً خلال الزمن .

أما علم الأجنة Embryology فقد أظهر كيفيـــة تطور أجنة معظم الحيوانات من شكل الى آخـــر واتخاذهـا نفس الاطوار التى مرت عليها أجدادها أثناء تطورها . فجنين الانسان مثلاً يحتـــوى على أثر خياشيم خلف الأذنين وذيله أطول من مؤخر ساقه ، يندثر بنموه فى رحم أمه . وجهازه الدورى يشبه الموجود فى الاسماك ، إذ تجد أن قلبـه يتركب من أذين واحـد وبطين واحد ثم يتغير هـــذا الجهاز مشابهاً الجهـاز الدورى الموجود فى الضفادع ، إذ يتكون للقلب اذينان بدل أذين واحد ثم يصير مشابهاً لقلب الزواحف حيث يتكون للبطين حاجز غير تام ثم يصير مشابهاً لقلب الطيور والثدييات اذ يتم الحاجز بانقسام البطين الى بطين أيمن وآخر أيسر . ويزداد أيضاً تشابه أعضاء الحيوانات التى من فصيلة واحـــدة كلما كانت فى دور التكوين بينما تتباين عنـــد نموها . لذا تتشابه أجنة الحيوانات الثديية والطيور والثعـابين وتتشابه أيضاً أجنة الانسان والقرد حتى الشهر الرابع .



معركة بين الماموث وجماعة من عصور ما قبل التاريخ

الانسان الأول

كان تاريخ الانسان الأول غامضاً ، لأننا لم نعرف متى وأين وجد . فالبعض يقول أن ذلك حـــدث منذ ثلثمائة الف عام ويزعم البعض بأنه وجد منذ مليون سنة . كما أن هناك فريق يقول أن أواسط آسيا هي مهد الانسان الأول ، بينما يجزم آخرون بأن افريقيا وطنه الأول . ولكن الأبحاث الأخيرة لعلوم الحفريات والتشريح المقارن القت بضوئها على هـــذا الظلام الذى كان يكتنف أصل الانسان ، ويمكننا الآن تحـــديد زمناً تقريبياً لانفصال الانسان عن القـــرد يقدر بنحو ٥٠٠ الف سنة ، والقول بأن أقدم آثار الانسان ترجع الى مدة لا تزيد عن ١٠٠ الف سنة .

ليس القرد فى الواقع أصل الانسان . إنما يشترك الأول والثانى فى أب واحـــد هو فى الغالب انسان قردي منتصب Pithecanthropus وجدت متحجراته فى جاوه . كان يعيش منذ ٥٠٠ الف سنة . ويرجح أن هذا الانسان لم يحصر معيشته فى الأشجار أو فى الأرض وإنما عاش بينهما ، فلمـــا خرجت ذريته وانتشرت فى العـالم عمد بعضها الى الأشجار والغابات ، فعاش فيهـا وفقد أبهامه واعتمد على فكيه فى الافتراس فطالت

أذرعته ولم ينم دماغه ، واعتمد بعضها على الأرض عاش فيها فاحتفظ بابهامه واستعمل السلاح يحمـــله فى يده فلم يحتج الى تقوية فكيه فكبر دماغه وانتصبت قامته .

قد سبق ظهور الانسان حيوان أو عـــدة حيوانات هى دون الانسان وفوق القردة الحاضرة فى حجم الدماغ . وكذلك لم يظهر إنســان واحد بل ظهرت عدة أنواع قد عرف منها خمسة الآن . منها إنسان جاوه الذى تكلمنا عنه وإنسان هيدلبرج Heidelberg Man وقد عاش منذ ٣٠٠ الف عام وإنسان بلتدون Piltdown Man ويسمى فجر الانسان Eoanthropus ترجع آثاره الى ١٠٠ الف عام والانسان النيـــاندرتالى Neanderthal Man وكان قادراً على صنع الاحجار واستخدام النار . عاش فى العصر الجليـــدى منذ ٥٠ الف عام ، وانسان روديسيا Rodesian Man ظهر فى أواخر العصر الجليدى وهو كثير الشبه بالانسان الحاضر ، أما اصل الانسان الحاضر فهو إنسان جالى هيل Galley Hill Man .

البيئة الطبيعية هى نظـــام الأشياء والحوادث التى يتصل بها الانسان فى حياته عن طريق الوجود المادى أو الجسمانى . ونمو الانسان يتغير بتغير البيئـــة ، فهو دائماً فى تفاعل معها . وقد نشأ الانسان فى مكان واحـــد ، ولكن انتقاله من مكان إلى آخر جعله يتكيف بالعوامل الطبيعيـــة الموجودة بكل

مكان . ولكنه رغم ذلك تغلب على كثير من الفروض الطبيعية ، وتلك ميزة فذة لا تتوفر فى الحيوان . ومن ذلك أن الانسان يستطيع الاجتماع بالأنثى خلال السنة كلها ، ومع أن الفصول لها تأثير عليه إلا أنه ليس عبداً لها . وقد كان الانتخاب الطبيعى فى زمن التجمع الحيوانى Zoôgenic Association يقوم على الجسم ، لأن العقل لم يصل إلى أن يكون الشرط الأول للبقاء ، ولما ترقى العقل تكونت عند الانسان ذاكرة اجتماعية تفوق بها على البيئة الجديدة ، مستعيناً بخبرته فى البيئة القديمة . ومن ثم أخذ الانسان يتقدم لأنه لا يقنع بالحياة الواقعة ولكنه يحاول أن يحيا حياة جديدة .

أما أوضح طابع تركته البيئة فى الانسان فهو تكون الأجناس البشرية المختلفة . وذلك لأن الحياة وحدة ، لها خاصة القدرة على التطور . وفى هذا التطور ، أى التغير من شكل إلى آخر ، تتميز هذه العملية بشيء من الصلابة وجزء من المرونة . فهناك جمود يحفظ قوة الحياة لحد ما ، يطابق سيرها القديم ، ولو أن هذا الحد قصير . فان الحياة حرة لتتخذ خطاً جديداً لها . وعلى هذا فالأنواع والأجناس هى الجمود والمرونة المشاهدان فى عملية التطور .

ورغم أن تنوعات الأجناس البشرية وراثية إلا أنها تتأثر إلى حد عظيم بالأحوال الخارجية ، وأهمها الحرارة . ولذا

نرى مثـلا أنه من خواص الجـلد الأسود الوقاية من الشمس . بينما يتأثر الجـلد الأبيض فى المناطق البـاردة من هذه الحرارة . أما الأسمر والأصفر والأحمـــــر فهى ألوان متوسطة تلائم المناطق المتوسطة .

والخلاصة أن التنوع نشـــأ عن اجتماع العناصر المختلفة بالاختلاط والتناسل . وحيثما كانت التنوعات مفيدة لمقـــاومة الحرارة والبرودة أو غيرهما من صفات المنـــاخ ، أو مساعدة على النجاح فى الحصول على الطعام ، أو مكسبة مهارة فى المحاربة أو الهرب من الأعداء ، مالت إلى الثبات بسبب تفوق الأفراد الذين ورثوها .

لكل مخلوق حاجات طبيعيـــة ووسط خاص . وهو فى نضال دائم مع هذا الوسط لاشـــباع حاجاته . وليس التقدم المادى إلا جهود الانسان لتذليل العقبات الطبيعية التى تقـابله ، كحماية نفسه من الحيوانات المفترسـة والحصـول على القوت ، أى اشباع الحاجات العضوية .

والانسان أرقى المخلوقات وأكـــثرها تركيباً ، ويرجـع ذلك إلى الصفـات التى يمتاز بها جسمـه عن الحيوانات الراقية ، وأهمها ميزة الوقوف معتدلا ، واليـد ، والصوت . كان يحصل على طعامه مما يقابله من الأعشاب ، فأخذت قواه البدنية تضعف تدريجياً بينما أخذت قواه العقليـــة تزداد نمواً ، وساعد على

ذلك محاولته الدفاع عن جسمه باعتماده على كثير من الحيل التى تتطلب تفكيراً وحذقاً .

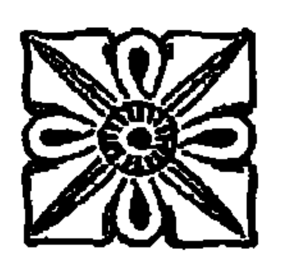
ولم ينظر الانسان إلى الغد ، لهذا لم يعرف تخزين ما يجده من الطعام أو الاكثار منه بالزراعة ، أو استئناس الحيوانات ، فقد كان الانسان جامع طعام ، ولم تبدأ المدنية إلا عندما أصبح منتجاً للطعام ، أى زارعا للحبوب أو مربيا للمواشى . كان يعيش كما تعيش القردة . فلم تكن ملابسه إلا الجلود وفراء الحيوانات ومسكنه تحت أغصان الأشجار إو الكهوف . وقد دفعته حاجاته الضرورية ، وأهمها الدفاع عن نفسه ، وصيد الحيوانات إلى اختراع أنواع حجرية من الأسلحة والآنية ، بسيطة الشكل غير مصقولة ، كالسكاكين ورؤوس الرماح والسهام والبلط . لذلك سمى هذا العصر بالعصر الحجرى القديم Palaeolithic ثم تحسنت هذه الآلات وزادت صقلا ودقة واختلفت أشكالها ، ويسمى العصر الذى تم فيه ذلك بالعصر الحجرى الحديث Neolithic ثم توصل الانسان إلى إضافه النحاس على القصدير فتحصل على البرونز وصنع منه آلات ، ويسمى ذلك العصر بالعصر البرونزى Bronze age ولم يصل إلى ذلك الانتقال إلا بعد أن اكتشف النار التى ساعدته على تهيئة المعادن التى كان يعثر عليها . وقد أدى استخدام المعادن إلى سرعة التقدم . لأن قوة المعدن سهلت

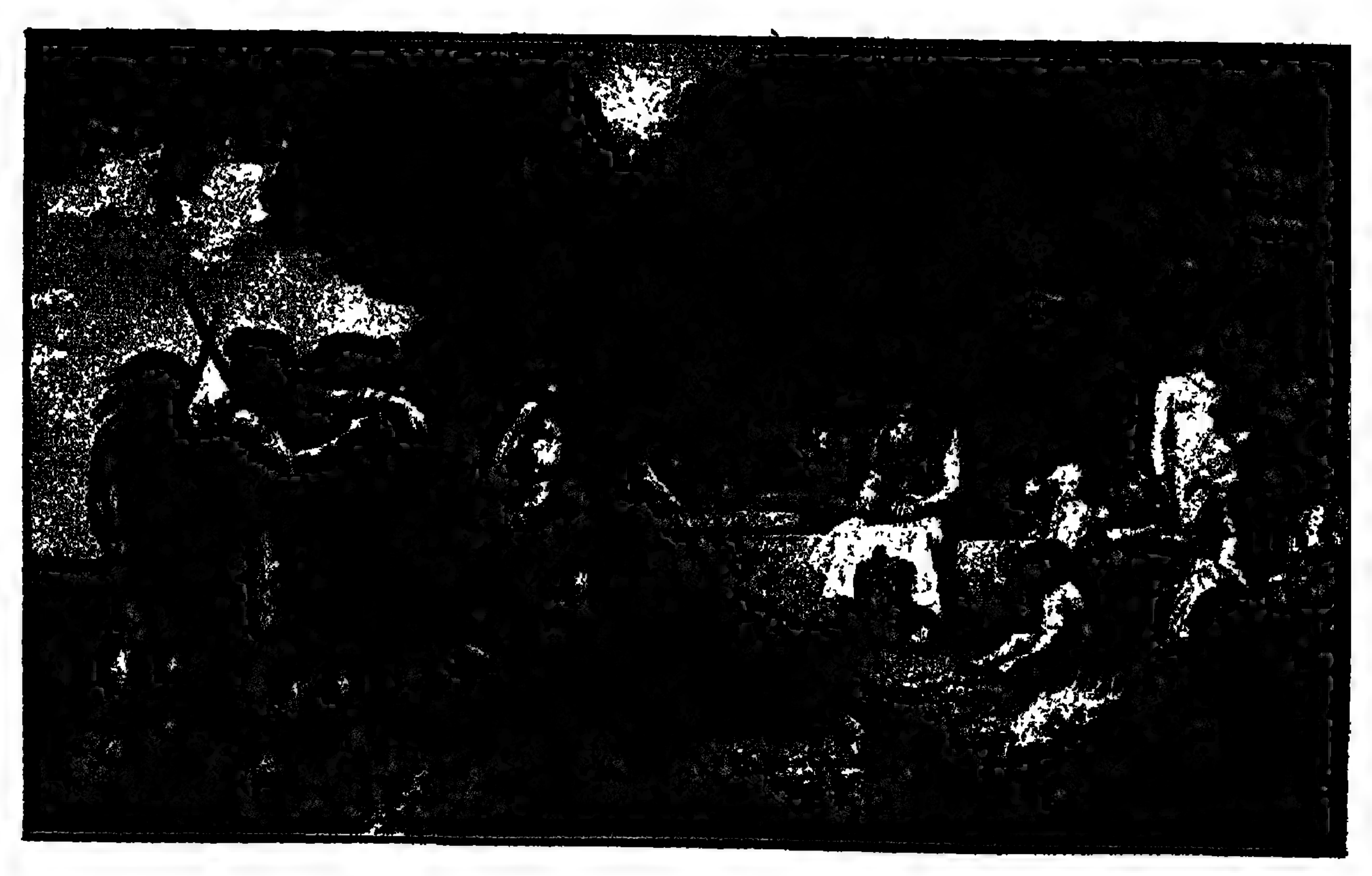
صعوبة معالجة مواد الصناعـــة . فالشجرة التى لم تكن تقطع بالفأس الحجرية إلا فى أيام ، تقطعها الفأس المعدنية فى ساعات . والقارب الذى كان ينقر بأحجـــار الصوان فى شهور ، تنقره الآلات المعدنية فى أيام .

وابتـدأت الحضارة حـين عرف الانسان الزراعـة . لأن الزراعة اقتضت إقامة الانسان بمكان لا يتحول عنه . والاقامة تستدعى السكن بكوخ ، فنشأت صناعة البناء ثم صار استئناس الحيوان ـ الذى كان يحدث اتفاقا وقت الصيد ـ تدجيناً دائماً ، فعرفت صناعات الألبان والأصواف والأوبار . وعرف الانسان من اللبن فوائد الخميرة فاستعملها فى خـــبزه وجعته . واقتضت الزراعة توقيتاً محكما ، فاضطر الانســـان إلى البحث فى دورة الفصول ، بدلا من التوقيت القمرى . لأنه لم يعـــد ينفعه فى الزراعة . فتوصل إلى معرفة السنة الشمسية وقليل من علم الهيئة .

كان الانسان الأول متصلا تقريبـــا بالمملكة الحيوانية بينما كانت المرأة متصلة بالمملكة النبـــاتية ، فالرجل يشتغل بالحرب والصيد والقنص وتربية الحيوانات . بينما تبـــذر المرأة البذور وتجمع الأثمار . ورغم اشـــتراكهما فى محصول عملهما فان كل منهما يعمل بعيـداً عن الآخر . وأتى حين اجتمع فيه عمل الرجل كراعي بعمل المرأة كزارعة . عند ما أخذ الرجل يستخدم البقرة أو الجمـل ليجر المحراث ، وأخـذت المرأة تعتنى

بالأغنام . وهنا تقدمت الزراعة . وأصبحت الأسرة خاضعة لنظام تعاونى فى الانتاج ، يعمل كل أعضائه متضامنين تحت سلطة الزوج . وأخذت الأسرة تنتج كل ما تحتاج اليه . وكان كل فرد قادراً تقريبا على القيام بجميع الأعمال الضرورية . لذلك كان التبادل منعدما فيها . ولكنه كان موجوداً بين القبائل التى تتنوع مواردها ، أى بين التى تعيش مثلا على الرعى ، والتى لا تعرف غير الصيد مورداً لغذائها . وهنا يحدث تقارب بين هذه القبائل ، فيتم تبادل المحاصيل بطريقة فطرية .





رجوع بعض صيادى العصر الحجرى من القنص

نشوء الجماعات

الغريزة الاجتماعية أهم وسيلة للبقاء فى تاريخ حياة الحيوان ، فأغلب الحيوانات اجتماعية بغرائزها وتعيش مجتمعة . وتمتاز الحياة الاجتماعية بتنمية الذكاء والفضائل الأخلاقية . لذلك كانت العادات الاجتماعية أهم وسيلة فى التناحر على البقاء . وقد كون الأنسان الجماعات Anthropogenic Association منذ بدأ ظهوره فعاش مجتمعا تحت نظام القبيلة والعشيرة وغيرهما . وقبل أن نبحث فى كيفية تكوين هذه الجماعات يجدر بنا أن نعرف شيئا عن خواص البيئة الاجتماعية .

البيئة الاجتماعية هى صور متخالطة من التقاليد والعادات والمعتقدات والشرائع ، نمت وتطورت بطريقة لاتنبهية أولا تأملية على مدى القرون ، كالزواج والدين وغيرهما من النظم الاجتماعية التى تحدد العلاقات القائمة بين الأفراد . ولهذه النظم عدة مظاهر :

فالمظهر الاقتصادى : تتحدد فيه حقوق الأفراد ومصالحها لمنفعة الجمعية . ومن ذلك تتغير حرية الفرد فى العمل وفى أوجه النفع الذاتى التى يمكن أن تسنح له فرصها ، وهذه النظم ، ولو أن طبيعتها سلبية فإنها ضرورية على وجه العموم .

المظهر الاخلاقى : تصدر الجمعية أحكاما ما على صور معينة من صور السلوك والانتهاج وتسم بعض هـــذه الصور بأنها صواب وبعضها بأنها خطأ .

المظهر الجنسى : تتخذ العـــلاقات الجنسية التى تربط النســاء بالرجال عدة أشكال : كالزواج الداخـــلى والخارجى والزواج الوقتى والدائم وكتعدد الزوجات والأزواج .

المظهر الدينى : تقدر الجمعية بعـــض ضروب المعتقـدات المتعلقة بوجود قوة أو قوات تعتبر فى مظهرها مقدسة . وتحاول أن تخلق لها نزعة من العبـــادة أو التقديس تستمدها من هذه المعتقدات .

مظهر الجمال : تحكم الجمعية على أشيـاء معينة بأنها جميـــلة أو قبيحة . فترغب فى الأشياء الجميلة وتنفر من القبيحة .

المظهر الفكرى : هذا المظهر عقلى فى قوامه . اقتـــاعى فى اساسه . تكون بمضى الزمن من تأمـــلات عقلية طويلة أكب عليها العقل البشرى فى هوادة وتريث .

ليست الجمـــاعات التى تعيش بالرعى وتقطن منطقة مـا ، أو الجماعات الزراعية الثابتة ، هي أول أشكال التجمـع . لأنه من الطبيعى أن صـلة الانسان بقطعة من الأرض قبل ظهور هـذه الجماعات لم تكن أساساً للنظـام الاجتماعى . ولـكن هنـــاك

عوامل كثيرة ترجح أن الدين سبق الجغرافيا فى تحديد الشكل الذى يتخذه الانسان فى تجمعه . فكانت طبيعة أول قانون دستورى طبيعة روحية .

العشيرة الطوطمية Clan Totemique هى العنصر الأول فى الاجتماع . وهى جماعة تتبع نظاما دينيا يسمى الطوطمية . يفرض هذا النظام مجموعة طقوس منعية تسمى الطابو . ويأتى ارتباطها من أن أفرادها يعتبرون حاملين طوطما واحداً وبعبارة أخرى اسما واحداً . وأفراد هذه الجماعة يعتبرون أنفسهم أقارب بعضهم لبعض . والطوطم مصدر هذه القرابة . وهو غالباً حيوان أو نبات تعتقد الجماعة أنها من سلالته . فتجعل له رمزاً واسماً عامين . فإذا كان الطوطم ذئباً ، فإن كل افراد العشيرة يعتقدون أنهم من أصل ذئب ، وعلى ذلك ففيهم بعض خواص الذئب .

ويعتبر الطوطم اله القبيلة أى موجدها وحاميها ، بينما يعتبره البعض مبدأ الجماعة الوحيد ، وقوة ارتباطها الدائمة ، وروحها العظيمة . وقد اصبح موضع عبادة فى شكل أبسط المعتقدات . فالطوطم هو الأصل والشكل الأول لكل ماتقدسة الأديان وهو ليس إلا القوة الاجتماعية الموروثة فى الجماعة . فهو يكوّن الفرد الاجتماعى فى العشيرة الأولى . وهو من ناحية الجزء الخارجى المحسوس ، ما نسميه المبدأ أو الآله . ولكنه من ناحية

أخرى رمز الجماعة . فإذا كان رمز الله والجماعة في وقت واحد فذلك لأن الله والجماعة شيء واحد . فآله العشيرة ، أو الطوطم ليس إلا العشيرة نفسها .

كان تأثير الطوطمية عظيماً فى تقوية الروابط الاجتماعية . وبعبارة أخرى فى خدمة المدنية وتقدمها . فهو أصل التعاون بين أفراد الجماعة والدافع على تضحيتهم المنفعة الشخصية فى سبيل منفعة الجميع . والأفراد الخاضعون لطوطم واحد يعتبرون أنفسهم أقارباً مستعدين لخدمة بعضهم بعضا حين الحاجة . والصلة الطوطمية أقوى من الصلة الدموية لأن الصلة الأولى أوجدت الشعور بالتضامن الاجتماعى وبالمسئولية المشتركة . فكل فرد مسئول حتى إذا احتاج الأمر تضحية حياته للأنتقام ،إذا أصيب بقية الأفراد بضرر ، كأن هذا الضرر وقع عليه .

عند ما تختفى الروابط الطوطمية تصبح العشيرة مرتبطة بقطعة من الأرض كالقرية مثلا . فتنتقل من النظام الطوطمى إلى نظام التوطن Territorial State . وبعبارة أخرى كانت مصر مثلا المنطقة التى يسكنها المصريون ، ثم أصبح المصريون الشعب الذى يسكن مصر .

تقوم الجماعات النظامية على عدة قواعد عرفية قوية . تصطبغ بصبغة مقدسة . وقد رأينا إلى أى حد احترم الأوائل

الطابو . فليس بغريب إذاً وجود رؤساء مكلفين بتذكير العشيرة في كل مناسبة بقدسية الطابو ، ويتولون ممارسة الطقوس الخاصة بذلك . وهنا تكون وظيفة رئيس العشيرة دينية . ولما تنتقل العشيرة من نظام الطوطمية إلى نظام التوطن ، يظل الرئيس كما هو ، إلا أنه يحدث انتقال غير مشعور به من الوظيفة الدينية إلى الوظيفة السياسية .

ولم تصل العشائر إلى نظام الدولة ، إلا بعد أن تقدمت اقتصاديا . أى أصبح عمادها الثروة . وذلك لأن الثروة تستدعى وجود الحكومة ، لأنها الأداة التى تتولى بها الدولة مهمتها . ورغم ذلك الانتقال الكبير فقد ظل السند الدينى باقياً .

أدى التملك الخاص إلى التطاحن بين الطبقات للحصول على إدارة الممتلكات المنقولة وغير المنقولة واستثمارها ، وأفضى بالضرورة إلى التسوية والخضوع للنظام . وبعبارة أخرى أفضت الثروة إلى وجود طبقات نشأ عنها تضارب حاد بين مصالح الأفراد ، بين الغنى والفقير ، بين القوى بثروته والضعيف بحرمانه . وقد استحال هذا النضال بين الأفراد إلى نضال بين الطوائف . لجأت الطبقة المالكة احتفاظاً بثروتها ومصالحها إلى قوتها الاقتصادية فى وضع نظم اجتماعية تلائمها . وجعلت الملكية الشخصية أساساً للسلطة السياسية . ومن ثم استأثرت الطبقة المالكة بالحكم والتشريع .

وتقوم الجماعات على التضامن والتضحية . ومن أهم الأسباب المكونة لهذه الأخلاق الاجتماعية النزعة الدينية وعنصر الدم وغريزة الاجتماع والمحيط الجغرافى والشعور بالمنفعة ، ويظهر العنصر الأخير جلياً فى الحروب التى كانت تقوم بين الجماعات الأولى .هجوميه كانت أودفاعيه . ولما ظهرت اللغه زادت من قوة التضامن الاجتماعى .

كانت غاية الجماعة دائما الاحتفاظ بوجودها أمام غيرها من الجماعات الأخرى . إلا أن غايتها تغيرت على توالى الزمن ، وأصبح غرضها الأول المنفعة العامة والحرية والمساواة . فلكل فرد الحق فى أن يتمتع بنتائج تضامن المجموعة . وكل عضو حر فى عمل كل ما لا يقلق الآخرين . كما أن القانون أصبح واحداً للجميع حامياً كان أو معاقباً . لايضع من الحدود إلا مايضمن أكبر قسط من التمتع بالحقوق .



الأســـــرة

تتعدد أسبـاب نشوء الأسرة ، وأغلبها ينحصر فى الغريزة والعادة والميل والائتنـاس والتعاون ، ولكن أهم من هذه كلها الغريزة الأبوية ، فمن الواضح أن القـــوة التناسلية تنحصر فى فصل معين ، وهى ليست الدافع لاجتماع الذكر والأنثى شهورا أو أعواما ، كما أن الأسباب الأخـــرى مهما بلغت من القوة لا يمكنها أن تطيل كثيراً بقاء الرجل بجانب المرأة . فإذا راعينـا أن اتحاد الذكر بالأنثى يبقى حتى بعد وضع الطفـل ، وأن الأب يعتنى بالطفل ، يمكننا القـول أن طول مدة اتحـــاد الجنسين مرتبطة إلى حد ما بواجبـات أبوية . وعلى ذلك يصبح الرباط الذى يجمع الأنثى بالذكر عبـارة عن غريزة نمت بداعى التأثير القوى للانتخاب الطبيعى . فمن البديهى أن مساعـدة الوالد على حماية الطفل تجعل النوع أقدر على التناحر على البقاء ، مما لو كان ذلك الواجب ملقى بأكمله على عاتق المـرأة ، فالعطف الأبوى والغريزة التى تدعو الذكـر والأنثى لتكـوين اتحاداً مستمراً هى صفات عقلية مفيدة ، تكونت بسبب قانون بقاء الأصلح .

والزواج ليس إلا ارتبـاط بين الذكر والأنثى ، قد يطول أو يقصر . ويستمر مدة الحمل وبعد ولادة الطفـــل . والزواج

والعائلة مرتبطان ارتباطا قويا . فمن أجل منفعة الطفل يجب أن يستمر الذكر والأنثى فى حياتهما معاً . والزواج مستأصل فى الأسرة ، لا الأسرة فى الزواج . وهناك أناس كثيرون لاتبتدئ الحياة الزوجية بينهم قبل أن يولد طفل . ويعتبر آخرون ولادة طفل قبل الزواج مما يجبر الوالدين على الاقتران .

وتصل الأسرة إلى تمام تكوينها عند مايتوفر التوافق بين حاجات الجماعة وبين حاجات أعضائها كباراً وصغاراً ، بأن يقل عدد الوفيات بين سن الطفولة وسن البلوغ ، وتقل بالنسبة للآباء فى هذه الفترة المتاعب لكيما يستطيعوا تربية الأطفال . وتخف هذه المتاعب بإطالة المدة التى تسبق التناسل ، وبقلة عدد المولودين وبزيادة السرور الحادث من العنايه بهم وأخيراً بإطالة المدة التى تلى التوقف عن النسل .

كان الأوائل يتشردون فى الغابات ككبار القردة ولا يعيشون إلا جماعات صغيرة فى كل منها الذكر وعدة من الاناث احتازهن بقوته ودفع عنهن مزاحميه . ثم كانت الضرورات الأولى الاجتماعيه ، كالحاجه إلى الاتحاد وإلى دفع العدو المرهوب ، فحلت القبيلة محل تلك الجماعات الصغيرة المبعثرة . فأدى هذا إلى وجود عدة نظم اجتماعيه عمادها الفروض الملقاة على عاتق كل فرد . فكانت الجماعة وحدة



أسرة من العصر الحجرى

يتفانى فيها الانسان لاستحالة العيش خارجها . ولما كان كل شيء فى القبيلة ملكا للجميع ، فقد جرت المشاركة أيضاً فى النساء والأولاد .

فالأسرة الأولى هى جماعة ليست قاعدتها الزواج ، ولكنها عشيرة تعتمد على صلات طوطميه . وتقوم بواجبات اجتماعية ودينية واقتصادية وسياسية بدلا من الواجبات الأبوية . والطوطم كما تقدم تعريفه هو نوع من حيوان أو نبات تعتقد به جماعة ، لأنه يجمع أفرادها كوحدة . ويسمح لكل منهم أن يعيش على صلاته بالآخر . ويفرض النظام الطوطمى عدة موانع تسمى بالطابو . أهمها عدم الزواج الداخلى وإباحة الزواج الخارجى .

وأعضاء العشائر الطوطمية أقارب بالدم ، لأن الطوطم ينتقل من الأم إلى الابن فيكون الانتساب أمى Matrilineal وعند ما يتخذ الابن طوطم أبوه بالوراثة يكون الانتساب أبوى Patrilineal وقد يحدث أن تمر المرأة الحبلى على ثعبان أو عظاية أو يسنح لها طائر أو حيوان ، فتعتقد أن هذا الحيوان هو سبب ولادتها . فاذا ولدت وشب ابنها ، صار هذا الحيوان طوطما له لا يجوز أن يقتله أو يؤذيه للصلة التى وهمت الأم وجودها بينهما . ويسمى هذا بالانتساب المحلى .

ولما تطورت الجماعات الطوطمية إلى جماعات اقتصادية

سار هذا النظام نحو الاقلال من عدد أفراد الأسرة ، وبالتالى إلى إنقاص الواجبات الدينية والاقتصاية والسياسية وجعلها من اختصاص مراكز أخرى غير الأسرة ، بينما أخذت الواجبات الأبوية فى الزيادة .

هذا مجمل ما يقال عن نشوء الأسرة ، وقبل أن نتحدث عن أشكالها العديدة من زواج داخلى وخارجى وتعدد الأزواج أو الزوجات وانتقال السلطه فى الأسرة بين الأب والأم يجب أن نستعرض سريعاً فعل البيئة الطبيعية لأنها من الأهمية بمكان . فاذا نظرنا إلى الأسرة فى القبائل المتنقلة نجدها تتأثر إلى حد بعيد بالحالة التى تعيش عليها هذه القبائل . فالزواج هو تبادل خدمات ، يتم كجميع الصفقات بدفع مبلغا ما . وتعدد الزوجات معدوم لأن الرجال فقراء جداً فلا يتمكنون من شراء ، أو القيام بأود أكثر من زوجة . فاذا قدر البعض على القيام بأعباء الصرف فلا يكون هناك عائق للزواج بأكثر من واحدة . ويتزوج الرجال فى سن مبكرة . وتعامل الأطفال برفق ، إلا أنه ليست لسكان هذه القبائل موارد ثابتة ، يعيشون فى حالة فطرية ، لذلك لا يشفقون نحو من يعجزون عن إعالة أنفسهم ونحو المسنين والمرضى والأطفال والضعفاء أو الزائدين ، ويتركونهم غالباً للهلاك .

وتميل العائلة بمناطق الرعى إلى الزيادة فى العدد . لأن

كثرة عدد المواشي تحتمل عـددا كبيرا لتوفر الالبان. فكلما ازداد أهل البيت ازداد الأولاد والأخـوة والخـدم . و إزداد بالتالى عدد المواشى التى تملـكها العائلة . وإذا كان عـدد أفراد الأسرة قليلا ، تضطر للأنتقال بمواشيها الزائدة . وإذا كان رب العائلة على درجـة من السعة فانه يتزوج بأكثر من امرأة ويصبح أبا لـكثير من الأطفال وسيداً لعدد عظيم من الخـدم ، يتصل أغلبهم به صلة دموية . و يبقى الأبناء البالغـــون مع أبيهم بعد زواجهم . وهكذا تنمو جماعه متصـلة الدم جميعهـا . وفى هذه الجماعة يزداد الافتخار بالنسب . وتقوى ذكرى الأجداد .

ومن صفات القبائل المحاربة اختطاف النساء فى الحـــرب وموت كثير من الذكور مما يؤدى إلى زيادة عـــدد النساء . فيكثر تعـــدد الزوجات . أما الجماعات الصناعية وهى أكثر رقيا بما لها من نظام صناعى ، فهى موحدة الزوجات .

قلنا أن للزواج عدة أشكال خضعت فى نشوءها وتطورهـا لفعل البيئة والعوامل الوراثية ، فمنها زواج الأباحـــة المطلقة والمسافحة الخالية من كل نظام ، لا حائل يمنع الرجل عن المرأة التى يريدها . وهذا الزواج نادر الوجود لأنه سهل الأنفكاك يكفى لحل قيوده أن يطرد الرجل زوجته . أو متى شاء أحـــد الزوجين .

وهناك نظام فوضوى آخر هـو اشتراكيـة النساء المسمى

تعدد الأزواج، وينتج عن عدم التساوى فى النسبه بين الجنسين لحيث يفوق عدد الرجال عـــدد النساء وحيث الغذاء قليـــل والطبيعة قاسية تتزوج المرأة بعدة رجال ليتعاونوا جميعاً على العنايه بالطفل والاهتمام به، وذلك أن رجلا واحـداً غير قادر على القيام بشؤون الطفـــل بل لابد لذلك من تآزر رجال عـــديدين وإلا هلك . وقد يـتزوج الأخوة من إمرأة واحدة رغبه فى حفظ ممتلـكات الأسرة .

وأقوى دليل على هـــذه الاشترا كية فى النساء، ما كانت عليه الأوامر الدينية عنـــد كثير من الأمم العتيقة التى كانت تأمر المرأة بتسليم نفسها إلى أجنبي قبـل الزواج، وهذا من قبيل الأعتراف والتمسك بما كان من حقوق الاشترا كية فى النساء، ولا ريب أن ترقى الملـكية وعادة الفتح حصرت الاشترا كية النسائية المحدودة وضيقت دائرتها شيئاً فشيئاً .

ولا يوجد نظام تعدد الزوجات Pologamy إلا حيث يزيد عدد النساء على عدد الرجال زيادة عظيمة بسبب الحروب أو لأن المواليد من الأناث أكثر من المواليد الذكور لأسباب طبيعية غير اعتيادية، أما فى البلاد التى يتساوى فيها العددان أو يكونان قريبين من بعضهما فأنهـا تحـــرمه بتة أو تمقـته، وذلك لأن زواج البعض فى هذه الحالة بأكثر من امرأة يحـرم البعض الآخر من وجود نساء يتزوج بهن ويقضى عليه بالعزوبة

طول حياته . ويرجع تعــــدد الزوجات فى أصل وجــــوده إلى أسباب عديدة أولها أن الرجل البسيط لا يستطيع الأمساك عن الاتصال بزوجته ، لذلك يمارس تعدد الزوجات ، لأن وحدانية الزوجة تتطلب منه أن يبتعد عنها زمنا معينا كل شهر وكذلك أثناء الحمل والرضاعة . ومنها مايرجع إلى عهد القبائل الحربية وتعديها على جيرانها لسلب الأمــــوال وسبي النساء وإلى تفوق بعض الأفراد جثمانيا وعقليـــا وتفردهم بالسطوة والجاه وأخذهم كل امرأة من القبيلة أقتساراً . وهنـــاك عامل اقتصادى يتعلق باستخــــدام المرأة فى الأعمـال الشاقة وذلك أن الرجل لم يزاول عملاً ما غير الصيد والقتـــال . والمرأة هى التى تقوم بكل الأعمال الأخرى فيقتنى الرجل من الزوجات بقدر طاقته ليستخدمهن فى أعماله ويستثمرهن فى إنماء ثروته ، وكلمـــا كثرت نساؤه ازداد غنى وخف الحمـــل الملقى على عاتق كل منهن . وفى هـذا الزواج يكثر النسل ويزداد الرجـل نفوذا وسلطانا . ومن الدوافع المهمة أيضاً الجمـــال النسائى والشباب الأنثوى وتأثيرهما على الرجـل ، فالكثيرون يقدمون على الاقتران إذا هرمت زوجاتهم . كما أن الغريزة الجنسية تضعف من المعرفة وكثرة الاتصال ويستثار حماسها بالجدة والتنوع .

ولاشـــك أن ترقى الهيئة الاجتماعية أدى إلى الاكتفاء

بزوجة واحدة Monogamy ومن ثم أخذ الزواج يزداد بدافع المحبة لا بواسطة التقاليد والقوانين التى تعتبر الزواج كعقد شراء .

كلما ارتقت القبيلة وازدادت حضارتها وتوثقت عراها الاجتماعية ، نشأت حدود ومعالم لم تكن موجودة من قبل وضاقت الدائرة التى يجوز الرجل أن يختار منها امرأته . ومن أقدم أنواع التضييق تحريم الزواج من نساء القبيلة وإباحته من نساء القبائل الأخرى ، وذلك لايكون إلا بالسبي والخطف فكان المنتصر يأخذ فى نهاية كل قتال من الغنائم والأسلاب ماكان سهل الحمل كثير الفائدة أو مايفخر به لدلالته على الشجاعة والاقتدار . والسبي جامع لهاتين الميزتين فإنه يعلى قدر الرجل من حيث دلالته على الظفر بالاعداء ويكسبه زوجات يتمتع بهن وأرقاء يستخدمهن فى مرافق الحياة . وإذا عجز الرجل عن أن يقتنى فى الحرب امرأة يتزوج بها احتال على خطفها حتى لايكون مرزولا عند قبيلته محتقراً بين اخوانه .

ومن طبيعة الأنسان حبه لبقاء النوع والمحافظة على النسل من الضعف والتلاشي . لذلك كان من القواعد الأكسوجامية التي تمنع أعضاء جماعة معينة من الزواج بأشخاص معينين ممن ينتسبون اليها ـ الزواج من بعض الأقارب ، وكلما زادت القرابة زاد المنع لأن المشاهد أن تعاقب الزواج من الأقارب يورث العقم ويمنع التناسل .

ولكن أخذ هذا الزواج الخارجي Exogomy يمحى على توالى الزمن حتى أصبح كل جنس تقريبا يعتبر الأصهار إلى جنس آخر من العار إن لم يكن من الاجرام ، وخصوصاً إذا كان الجنس الأخير متأخراً عنه . وهذا الشعور أقوى فى النساء منه فى الرجال . وقد لوحظ أن الزيجات التى حدثت بين أشخاص ينتسبون إلى أجناس مختلفة كان الرجال غالباً من الجنس الأقوى . ولذا بينما نجد المرأة لاتميل إلى أن تضع من قيمتها نرى الرجل أقل منها مقاومة فى هذا الموضوع .

وكان الانتساب فى الجماعات التى تعيش على السفاح أو تمارس تعدد الأزواج يستلحق بالأم . لأن الطفل لايعرف أبوه وقد سمى منذ وجدت الاسماء باسم أمه وورثها وحدها من يوم نقلت المالكية من شخص إلى آخر . وكان الأخوال أقرب الأقارب إلى الطفل فكانوا يعاملونه معاملة الوالد ، لذلك كان يرث الرجل أولاد أخته . وكانت السلطة فى حالة تعدد الأزواج موضع تنازع وتنافس . ولو أن الشائع أن أحد الأزواج ينفرد بالنفوذ والسلطان . وقد يكون غالباً الزوج الأول هو الزوج الأساسى . و إذا كان الأزواج أخوة فالأكبر هو أقربهم إلى المعنى الصحيح من كلمة (زوج) . ويعتبر الأبناء أبناؤه لاينافسه فيهم أحد .

والزواج بأكثر من امرأة يستلحق النسب فيه بالآباء

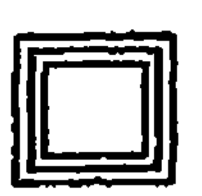
وفاقا لحقوق التملك وتأييداً لسلطة الرجل على المرأة فيكون الأب فى هذه الحالة صاحب الملك الذى لاينازع فيه، ليس على الأم فقط بل على الأولاد أيضاً . وفى ظلال هذا النظام تم وجود البنوة الأبوية وأقيمت الأسرة على دعامة السلطة المطلقة للأب وحرمة الأجداد .

والمشاهد أن أهم أشكال السلطة فى الأسرة اتبعت الزواج الداخلى أو الخارجى فقد كان الزواج الخارجى متصلا بالسلطة الاميه Exogamous Matronymic وقد كان الزواج الداخلى متصلا بالسلطه الأبوية Endogamous Patronymic وكما أن موطن الأم كان موطناً للأول Matrilocal كذلك كان موطن الأب موطناً للثانى Patrilocal

وقد أدى نظام اتخاذ الزوجة الواحدة إلى تفوق الأمومه وسيادة رب الأسرة Bi-Parental وأصبحت الرغبه قوية فى قلة النسل . فبعد أن كانت الأسرة الكبيرة تساعد الرجل على الفوز فى تنازع البقاء أصبحت عالة عليه . ولم يصبح أقارب الأنسان هم أصدقاؤه وحدهم ، وارتقت الزوجة ولم تعد عاملة فقط لأن الأدوات والحيوانات أصبحت تقوم بكل ما كانت تقوم به . ثم ارتقت عاطفة الحب وتهذبت وأصبحت أكثر ميلا إلى الأيثار منها إلى الأثرة وأضحى الأنسان يرى فى الشباب والجمال شيئا أرقى من الرغبة الجنسية .

إذا تأملنا فيما سبق ندرك أن الضرورات المحلية هي التى اقتضت عند الجماعات المختلفة كل ماهو مخالف لآرائنا الحالية من قبل زواج الأخ من أخته وزواج المتعه والزنا المباح .

ومهما اختلفت الأشكال التى كيفت بها القوانين الدينية أو المدنية أو العادات روابط الذكر بالأنثى فالظاهرة العــامة التى يراها الباحث فى كل مكان : اعتبــار المرأة كشىء امتلك بالحيازة . فعقد قران الجنسين مهما اختلفت أوضاعه وشمل تعدد الأزواج أو الزوجات أو الزوجة الواحدة ما كان إلا عقد عبودية للمرأة . فهــذه القرون التى قضتها المرأة رازحة تحت عبودية الرجل . اعتاقت ترقى ذكائها . كما احتفرت مضاعفات الوراثه من القدم هوة عقلية وأدبية بين الرجل والمرأة تحتـاج فى ردمها إلى كثير من الزمن



الدين

الدين ظاهرة اجتماعية تتصل بالعواطف، وسواء كان مصدره الخوف أو كان ناشئاً عن الاعتقاد فى الطواطم، أو مستمداً من فكرة الأنسان عن الروح. فانه يرضى العواطف ويشبع حاجة الانسان إلى إدراك الوجود من الناحية العاطفية لا العقلية

هناك ثلاث نظريات عن أصل الدين: أقدمها نظرية الطبيعيين Naturism وترى أن عاطفتى الخوف والرجاء هما الأصل فى التدين، أما الخوف فبعثته فى نفوس الأوائل مخاطر الطبيعة الرهيبة، والرغبة فى الاحتفاظ بالنفس. فكان الانسان يقدم القرابين ويرفع الدعوات لاتقاء غضب قوى الطبيعة الهائلة ما دام يشعر السلامة والراحة فى اللياذ بمثل هذه الوسائل. فهو يظن أن الطبيعة تغضب لأنه يعتقد الحياة فى جميع الأشياء مع مايتبعها من الأعمال والرغبات والشهوات.

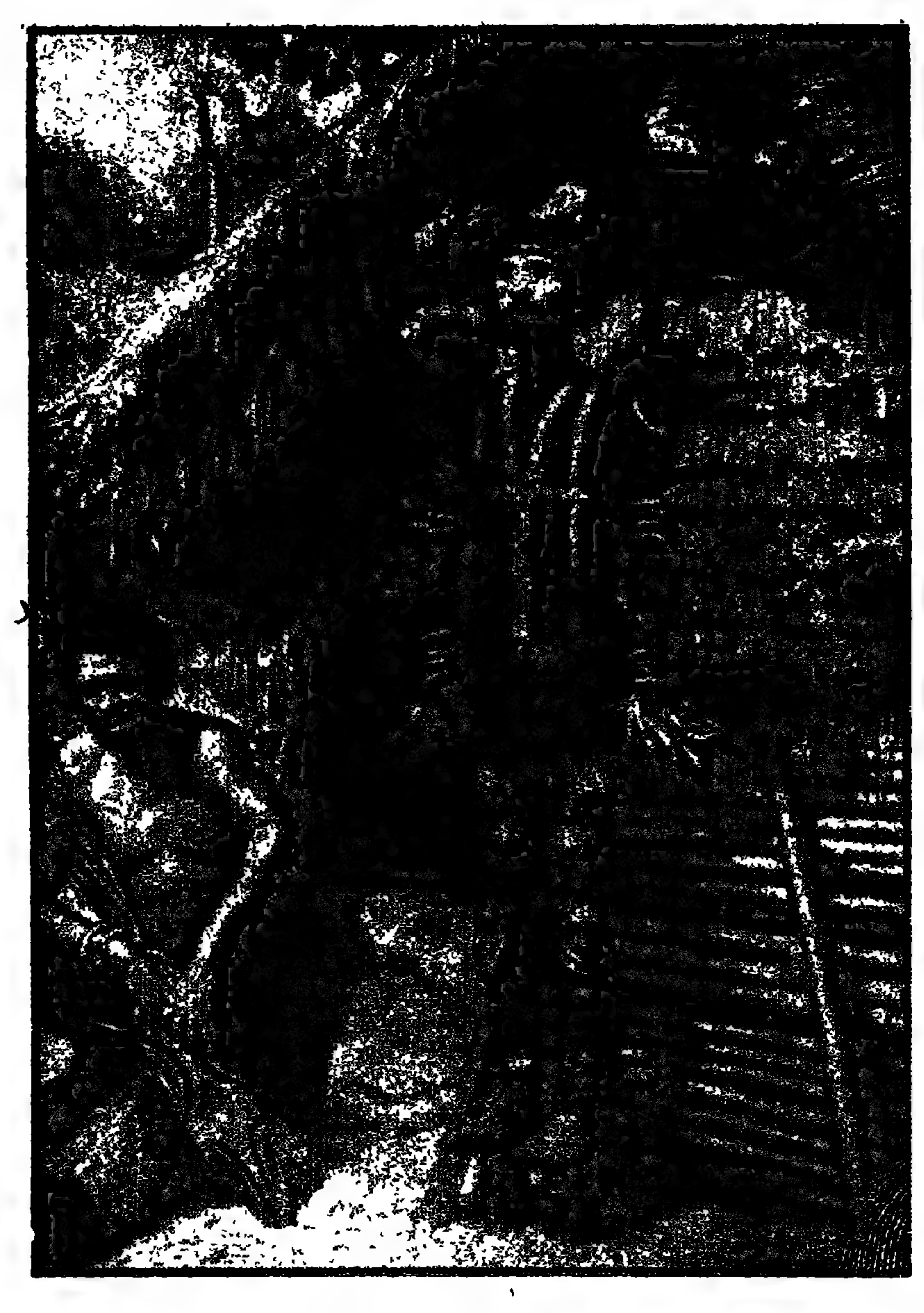
وترجع أصول المعتقدات كلها حسب نظرية الطبيعيين الى ثلاثة ضروب اعتبرت الأدوار الثلاثة المنظمة للدين: فالضرب الأول الوثنية حيث كان الأنسان يعزو مثل أفكاره وعواطفه وإرادته الى الحيوانات والاشجار والاخشاب

والاحجار وغـــيرها ثم استنار العقل البشرى بعد ذلك بعض الاستنارة فحصر الروحانية . ولم يعد الانسان يؤله الا القوى الكبرى فى الكون ويتصور وراء كل منها كيانا ذاتيا غـــير منظور يرأسها ويتصرف فيها . وهـــذا دور الشرك او تعدد الآلهـــة ، ثم تمشت الديانة شيئا فشيئا الى التوحيد حتى لم يعد يرى الانسان خارج الوجود إلا آلها واحـــداً قديراً خالقاً متصرفاً فى الخلق ، محجوباً عن عباده أبدياً لا يتغير .

فالدين هنا ليس الا خوفاً تقليدياً إزاء القوى غير المرئية . وهـذا الخوف نستطيع أن نسميه ديناً حين تحافظ عليه الدولة ونستطيع أن نسميه أسطورة إذا لم تكن له هذه الصبغة الرسمية

والنظرية الثانية عن أصل الدين هى الطوطمية Totemism عند تعميمها على جميع الأديان وقد تكلمنا عنها فى الفصل الرابع أما النظرية الثالثة فهى نظرية الأرواح Animism وهى أقرب النظريات للواقع وأكثرها صحة ، ولذلك سنتحدث عنها باسهاب بل سيقتصر هذا الفصل عليها .

يحتوى الدين على عنصر يعتبر أقدم وأعظم من أى اعتقـاد فى الله . بل وفى ممـــارسة التضرع ومحاولة تهدئة غضب الأرواح أو الآلهـــة بتقديم العطايا والقيام بمراقبتهـا . وهذا العنصر هو فكرة الانسان عن حيـاة الميت . التي كانت تعتمـد عليها عقيدة الانسان الأول . وهـــذا الاعتقاد فى الواقع هو



وثن لزعيم قبيلة ، نصب بعد موته ليحرس القبيلة

أقدم مظاهر الدين . ولهـــذا لا زالت بعض القبائل الهمجية لا تعرف شيئا مطلقاً عن الله ولـكنها رغم ذلك تمـــارس دينا أو شعائراً نحو موتاها .

مر الاعتقاد باستمرار الحيـــاة بعدة أدوار تطورية كباقى الافكار البشرية . ورغم أن هذا التطور كان طفيفا فى الادوار المختلفة . الا أنه فى استطاعتنا التميـــيز بين الأدوار الثلاثة التى مرت فيها فكرة الانسان عن بقاء الحيـاة فى الميت . فنى الدور الأول أى الأكثر انحطاطا لم يكن الانسان يمـــيز جيداً بين الحيـاة والموت . كان يظن ان الميت لا يزال حى الجسم ، وفى الدور الثانى عرف الموت كأنه حـــادث طبيعى ولـكن وقتى ، ومن ثم نظر الانسان فى بعث الجسم وتوقع حياة العالم الآخر أما فى الدور الثالث فقد اعتبرت الروح مادة تختلف عن مـادة الجسم ، وتبقى بعدفنائه منفصلة فى شكل هيولى . ولهـــذا كانت فـكرة الانسان عن مستقبل الروح وليدة هذا الدور لا تعتمد على الاعتقاد فى بعث الجسم ، ولـكنها كانت اعتقاداً فى خـلود الروح .

إبتدأ الانسان ينظر الى الروح كشىء متعلق بالنفس ، يترك الجسم ثم يرجع اليه أو كشىء يفـــترق عنه ولـكنه مع ذلك ضرورى للأنسان ، وبعبـــارة أخرى نظر الى الروح كعنصر غير مادى . وترجع هذه الفـــكرة إلى رؤية شخصه فى أحلامه

يعمل ويتحرك وكذلك رؤية الاشخاص الآخرين . وإذا جرح أحد من أفراد القبيلة وذهب وعيه . كان الانسان يخال أن روحه هجرت جسمه . فكان يحاول أن يعيدها الى الجسم موجها صلواته ودعواته اليها ، راجيا إياها ان ترجع ، فلم يستطع التميز بين غيابها الوقتى ورحيلها النهائى .

كانت فكرة الموت فى الواقع غريبة عن عقلية الانسان ، ولازال هناك كثير من الهمجيين لا يعرفون ان الموت شيء طبيعى وضرورى . بل بالعكس ينظرون إليه كحادث غريب غير طبيعى ، ناتج عن مؤامرة الأعداء أو عن السحر . كان الانسان يعتقد ان الميت قد ذهبت روحه أو تنفسه أو أى شيء آخر ولكن ذلك قد يرجع ثانيا الى جسمه فى أى وقت .

لهذا اهتم الأنسان بحفظ جثة الميت ، وذلك بتركه عندما يموت فى كوخه أو مغارته حيث يبقى مع الاحياء من أسرته ، ولكن نظراً لتألم الأحياء لوجودهم قرب جثة الميت . كانوا يضعون الجثة خلف الشجر أو فى مكان آخر تكون فيه بعيدة عن أى ضرر . وكانت نظرة الأنسان إلى الميت نظرة حب ، فكان يقدم إليه الطعام ويعتنى به خصوصاً الجمجمة . ويسمى هذا الدور بعبادة الجثة .

ثم انتقل الأنسان إلى الدور الثانى وهو الدفن أو مايشابهه . حيث ابتدأ يخشى الميت ويهاب عودة الجثة أو الروح . ولكى

يتلافى شوكتها توصل إلى حفر مكان ثم وضعها فيه وغطاها بطبقة من التراب . وكان يضع أحياناً قطعة كبيرة من الحجر عليها للتأكد من عدم عودتها . ولظنه أن الميت يستمر حياً في قبره كما كان يعيش على الأرض ، كان يزوده بالأسلحة والآلات والأطعمة وغيرها من الضروريات اللازمة لسكنه . لقد كانت الجثة تعيش فى الكوخ مع العائلة ، ثم انتقلت إلى المعيشة مع أجدادها بالقبر . ويسمى هذا الدور بعبادة الروح .

وفى الدور الثالث حاول الأنسان أن يبعد الروح بحيث لاتستطيع اقلاقه مطلقاً فتوصل إلى حرق الجثة لمنعها من زيارة مساكن الأحياء . وفى هذا الدور أينعت فكرة الأنسان عن خلود الروح . ولا شك فى أنها تمتاز عن فكرة البعث التى كانت نتيجة الدور الثانى . ويسمى الدور الثالث بعبادة الروح الحقيقية .

رأينا مما تقدم أن الآلهه كانت مجهولة . فلم يعبد ويقدس الأنسان حينذاك إلا جثث اصدقائه وأبائه .

وقد كان الله فى المبدأ روح قوية مسالمة قادرة على المساعدة التى يرجى منها الكثير . ثم لما ارتقت الزعامة والملوكية . كان لها تأثير عظيم على فكرة الألوهية . كان الملك يعتبر آلهـا ذو أهمية عظيمة بعد أن يموت . وكانت قوة الآله تزداد وفقاً لزيادة قوة الملك أو الزعيم . كما أن الملك الأقدم والأكثر

غموضاً يعتبر أكثر قوة فى مرتبة الآلهة .

وهكذا نمت الآلهة شيئاً فشيئاً وأخـــذت تتحرر من الأرواح بسرعة عظيمة . وكان هذا التطور الارتقائى ينمو وفقا لنمـو المعابد والرئاسـات الدينية . وعلى ذلك كانت الآلهـة فى نظر الأنسان خلال هذا التطور كشىء غير مـادى ، أقرب إلى الروحيـة منها إلى البشرية فى شكلها وطبيعتها . ولهذا ميزهـا بصفات القوة وجسامة الحجم ، وكثيراً ما مثلت فى الشمس والقمر والقوى الطبيعية . ولـكن قوة هذه الآلهة لم تصـــل إلى تمام القدرة فى دور تعدد الآلهة . لأن هـــذا التعدد يحدد من سلطة كل منها .

كان الدين ولا يزال يعتمد على عناصر ثلاثة : المعـــابد والأصنام والـكهنة ، ومن المحتمل أن القبركان أول صورة للمعبد لأن الميت كان يترك فى الـكوخ الذى يقطنه حياً . حيث يقـدم إليه مايحتاجه الحى . وتؤدى له فروض العبادة . فاستلزمت هذه الأكواخ بعض العناية . فـكانت تزخرف ومن ثم أخــــذت تعظم تدريجيا . وكلما عظم المعبود زاد الأنسان من الفن والمهارة فى بناء وزخرفة مسكنه . حتى أصبحت عظمة المعبد تتوقف على عظمة الآله .

أما الأوثان الأولى فلم تـكن صورة للميت ، ولـكنها كانت الجسم نفسه يحفظ أو يحنط ، ثم أصبحت صورة تمثـل الآله

وعندما نمت فكرة الألوهية واعتاد الأنسان النظر إلى الوثن باعتباره ممثلا للآله ، كان من السهل الأكثار من هذه الأوثان ، فازداد الالتباس بين الآله وصورته . أيهما الحقيقى وأيهما الصنو ؟

والكهنوت هو العنصر الثالث فى الدين وقد زاد من أهمية وقوة الآلهة ، لأن الكهنة هى الطبقة التى ينحصر عملها فى تعظيم وإجلال الآلهة المعبودة . وللكهنوت أصلان : الأول له صفة الملكية Quasi-Royal والثانى له صفة الخدمة Quasi-Servile

يرجع الأصل الأول للكهنوت إلى اعتبار رئيس القبيلة كأبن أو ممثل للروح آله القبيلة . له وحده الحق فى الاقتراب من الآله وتقديم العطايا . فإذا أراد شخص شيئاً من الآله فلابد لذلك من وساطة رئيس القبيلة لأن الأخير قريب وصديق الروح المقدسة ، فهو يعرف أفكارها وعاداتها . ومن هنا كان هؤلاء الرؤساء كهنة بطبيعتهم . فهم مقدسون بحكم الوراثة لأن هناك علاقة خاصة تربطهم وأولادهم بآلهة القبيلة فدمائهم من دماء الآلهة .

يستدل بما مضى على أن آلهة الجماعات الصغيرة أو الأسر فى أول أشكال الدين هى اسلافها الميتة . ويقوم رب العائلة بمهمة الكاهن ، يقترب من أرواح الأسرة أو آلهتها بالنيابة

عن زوجاته وأولاده واتباعه . ولما ارتقت القبيلة قويت مهمة الرئاسة وأصبحت أرواح أو أسلاف الأسرة المالكة آلهة ، يمثلها الرئيس الموجود وأقاربه . ومن ذلك اتصلت السلطة الكهنوتية فى أغلب الأحوال بسلطة الملك أو الزعيم .

ومن التقاليد التى رسخت على توالى الزمن ، عدم منح الزعيم أو الملك سلطة الحكم إلا باحتفال يمثل فكرة الخلق كما تعتقدها الجماعة . فالملك أو الزعيم ينتسب للآلهة ولذلك يمنحه الشعب قوة الخلق لأنها تعتبر ضرورية فى تأدية واجباته الملكية . وفى الاحتفال المقدس يمثل الرئيس دور الخالق . وذلك بممارسة عدة طقوس سحرية يخلق بها الطعام للرعية فى شكل نباتات أو حيوانات ، والقيام بعدة أعمال من شأنها حفظ المحاصيل والأغنام .

وكان للنوع الثانى من الكهنوت صفة الخدمة quasi-servile ويرجع أصله إلى أنه لما كانت العشيرة مضطرة لتقديم العطايا للأموات عينت الكهنة أو الخدم ليتحققوا من العطايا المقدسة . وهنا كان الأغنياء يقفون للقبر عينا لحفظ العطايا ولامداد الكاهن بمعاش أو مرتب . وكان هذا النوع من الكهنوت وراثى لضمان استمرار نظامه . ولذا كثيراً ما استمرت العبادة التى تؤدى فى القبر مئات السنين .

وعلى توالى الزمن ظهرت الأحكام ، ونمت العادات

والطقوس ، وأصبح الـــكهنة حفظة التقاليد المقدسة ، يعرفون وحدهم كيف يقتربون من الآلهة وفى امكانهم معرفة ما تخبيء الآلهة من سرور وحزن ، فبدونهم لايستطيع عابد أن يقترب من الآلهه ، ولذا أصبحت لهم أهمية فاقت غرض وجـــودهم .

كان الانسان يرى انه ليس هناك آلهة غير جثث أسلافه وأرواحهم . ولم يكن الدين غـــير القيام بعدة طقوس وتقديم بعض العطايا لهـذه الجثث أو الارواح . ثم احتاج الى عناصر عظيمة وآلهة مختلفة . وأهم هذه الآلهة ، رب الزراعة .

كانت فكرة دفن الميت ترمى الى حبس روحـــة أو جثته وذلك بغمرها بالأتربة . ولكن لم يكن ذلك كافياً ليجعله على يقين من عدم ظهورها . فكان يضع غالباً على القبر أو الأكمة حجراً ثقيلا . ومن عملية الدفن هـذه بدأ حرث الأرض، وتعريض الأرض السفلى للهواء ، واستئصال النباتات غير الصالحـة . وكل هذه المقـــدمات الأولى الضرورية للزراعة كانت عرضية . ولما كان من عادة الانسان تقـــديم الأطعمة والأشربة لموتاه بوضعها عـــلى القبور - وكانت من نفس ما يتناوله الأحياء ، أى لحوم الحيوانات والطيور المقتنصة ، والأسمـــاك والفواكه والحبوب الناضجة كالفول والحنطة - فقد كان الانسان يزرع البذور ، بدون علم منه ، فى أرض محروثة جديدة ، خالية من النباتات غـــير الصالحة ، ومسمدة بدماء الذبائح المقـــدمة

ومن شأن هذه البذور سرعة النمو . والنضوج فى أقل زمن ممكن مما استرعى انتباه الانسان . وبما انه لا يعرف شيئاً عن البذور والسماد أو طبيعة الأرض فقد استنتج بحسب ماتراءى له أن الروح الخيفة القوية المقبورة سرت بما قـــدم لهـا من لحوم وحبوب فردت هـذه العطايا من نفس نوعهـــا ، فضعفت مقـدار الحبوب مئات المرات . لاشك أن الانسان كان مبتهجا تحت مثل هذه الظروف بقطف وأكل الحبوب التى نمت بالصدفة على قبور موتاه . وعلى توالى الزمن وصل الى توسيع نطاق الزراعـة . وكانت الخطوة الأولى نحو هذا التطور ناتجة عن ملاحظة فلاح البذور والحبوب فى القبور الحـديثة لا على جميع القبور ، وكان يلوح له أنه حالمـــا ينضج النبات الطبيعى تفنى قوة الروح. لذا وجد من المستحسن الاعتماد عـــلى الارواح الجـــديدة دائما للأغراض الزراعية . وربما نشأ عن ذلك عادة انشاء قـبراً جـديداً سنويا فى أكثر الأوقات الملائمة للزراعة . ولم يكن هذا القـــبر الجديد لشخص مات فى ذلك الوقت بالصدفة ، بل لضحية مقصودة ذبحت لتمـــد الانسان بروح الزراعة (آله صناعى) ولـكى تجـــعل الحنطة تنمو بسرعة وبمقدار عظيم . ثم توصل الانسـان الى انه اذا زاد فى حفر مساحة الارض فان الحبوب تنمو حول قـــبر الضحية المقدسة كما تنمو عليه . وعلى ذلك اتسع الحقل المزروع وزادت

عملية الحرث التي يقوم بها الانسان باتساع الارض المحروثة فاصبحت قبراً من الوجهة النظرية وحقلا من الوجهة العملية .

كانت الضحية فى الأصل ملكا أو رئيسا مقدسا أو ابنا أو ابنة ملك أى أحد أفراد السلالة المقدسة التى تجرى فى عروقها دماء الآلهة أو الملوك . ثم اقتصرت على أحد الأفراد فاختص بالعناية وعومل كما تعامل الآلهة أو الملوك ثم استبدل الشخص بحيوان Theanthropic فلحقه التقديس وورث طقوس الآلهة . ثم تطورت هذه الطقوس فكانت الضحية كحكا يصنع بشكل الحيوان وعلى توالى الزمن فقد الكحك هذا الشكل .

اعتقد الأنسان فى أنه إذا أكل لحم أى حيوان يكتسب صفاته ومن ذلك كان الناس يأكلون لحم الأسد أو يشربون دماء الفهد لكيما يكتسبوا قوة وشجاعة هذه الحيوانات . وكانت تأكل أيضاً لحوم الأبطال والآباء وتشرب دماؤهم لنفس الغرض وذلك بعد موتهم ، لكى يحتفظ الأبناء فى أجسامهم باجساد وأرواح أبائهم ويكتسبوا شجاعتهم ، فيحتفظون بالحياة داخل الأسرة ، وكان هذا العمل مقدساً . فكان من الطبيعى إذاً أن يأكل الأنسان أيضاً أجسام آلهته الصناعية ، أو أجسام الملوك ، أصحاب السلطة الزمنية عندما يضحى بهم من أجل الشعب . وبأكل جسم الآله يكتسبون

قدسيته ، ويمتزجون به . وهذا هو أصل التضحية . فبينما تسكب دماء الضحية في الحقل وتدفن بعض أجـــزاء الجسم في نواح مختلفة تؤكل باقي أجزاء الجسم لتكسب آكلها التقديس .

بعد أن كان الحجر يوضع على القبر ليعوق الجثة عن القيام ، أصبح يمثل الجثة نفسها . وبعبارة أخرى يمثل الروح أو الآله . ثم أخذ الأنسان يغير من وضع وشـــكل الحجر حتى أصبح وثناً تقدم له الصلاة . ولما رسخت فكرة قدسية هذه الأحجار بعقلية الأنسان ، كان من الطبيعي تقديس الأحجار المشابهة للأحجار الأصلية باعتبار أنها مسكونة بروح أو آله . ثم أتى على الأنسان حين غمض عليه التمييز بين الحجر والروح والسلف والآله . وهكذا أصبح الحجـــر والروح متصلين ببعضهما . حتى أصبحت العطايا تقدم للحجر نفسه . ولذلك عندما استعمل الحجـــر المسطح لتضحيه القربان لم يشعر المتعبدون أنفسهم بهذا الأنتقال .

وعندما كانت الأحجـــار رأسيه كانت الدماء تسكب على الجزء العلوى الذى يمثل الوجه أو الفم وكان ذلك خطوة بينه في عملية تشبيه الأنسان بالآله Anthropomorphisation التي يتحول بهـــا رأس الحجر إلى وثن . وكذلك استبدلت دماء الضحايا بمواد حمراء . لأن الأنسان كان يعتقد أنه من السهل غش الأرواح والآلهة بمثل هذه الخدع .

هذا مجمل مايقال عن نشوء الدين . وقد ألمحنا فى كثير من الفصول الأخرى إلى الدور العظيم الذى لعبه فى نشوء الجماعات وتكوين الأسس الاجتماعية كالزواج الذى اعتبر مقدساً منذ قديم الزمن . وباقى أدوار الحياة العائلية التى كانت تقام لكل منها طقوس مقدسة لمباركتها . كما أن كل قانون كان يشمل الكثير من النواحي الدينية . فالدين من عوامل الاجتماع الأساسية ، وإن كان بالأديان كثير من المظالم والخرافات فهى ضرورية عندما تكون الانسانية فى طفولتها بعيدة عن الرأى العام والقوانين التى تحميها اليوم .



القانون والأخلاق

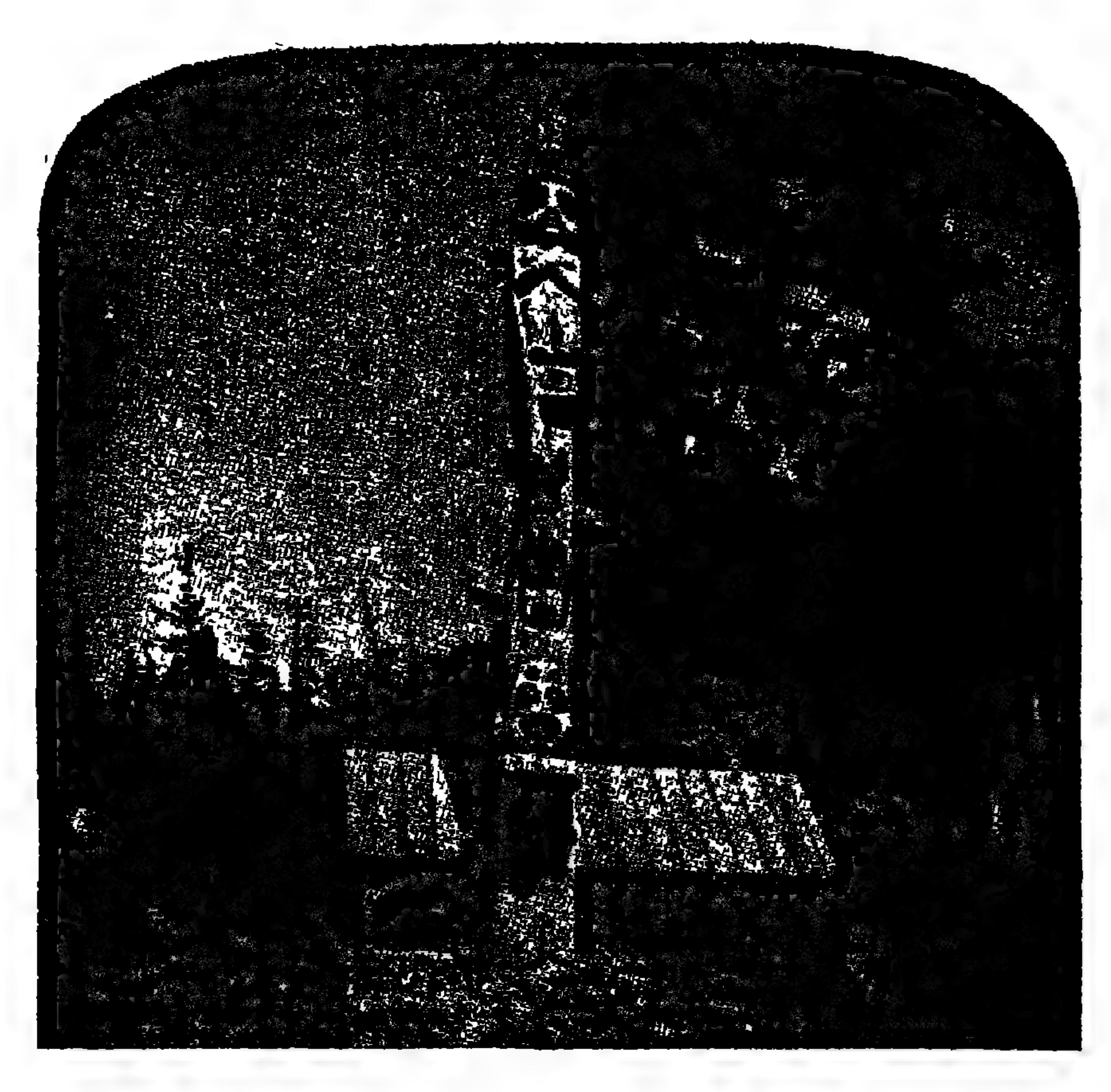
كان الانسان ولا يزال يسير فى حياته محكوماً بعدة غرائز وعادات ، تكونت على مر الزمن لتسد حاجة طبيعية . ومن الغرائز ماهو خاص بالجماعة ، كالتزاوج والحضانة والتجمع ، ومنها ما هو خاص بالفرد ، كالخوف والغضب والبحث عن القوت ، وكذلك العادات فردية واجتماعية ، والعادات الاجتماعية تسمى العرف ، ومن العرف تستخرج الأوامر التى تثبت فائدتها للانسان . وتقوم هذه الأوامر على الحق والواجب وقد نشأ الأول عن ضرورة اجتماعية ، والثانى عن ضرورة فردية . وقد نشأت القوانين من إدارة تنظيم العلاقة بين الحق والواجب ، بايجاد توازناً بينهما وبعبارة أخرى بين أنانية الفرد وصالح الجماعة .

وكل ماهو فى صالح الجماعة يعتبر حقاً ، لذلك يتبع العرف الحق . وتطور الاخلاق هو تطور الحق ، ولو أن الناس جروا على مبدأ العرف لما تقدم العالم عما كان عليه من قديم الزمن لذلك نشأت أحوال عورض فيها العرف حيث سار سلوك الناس ضد العادات السالفة . فاستطاع الانسان أن يخطو بنفسه

فوق التقاليد الجامدة التي تنحو به إلى أشـــكال مخصوصة من الاخلاق . فوجد سروراً في عمله هذا ، سواء كان المقترف خيراً أم شراً ، لذا كان كل من يتعدى حدود العرف ولو بدافع الأنانية القوية ، يساعد على تقدم التطور البشرى . فبدون الخطيئة ما اســـتطاع العالم معرفة المدنية . فسقوط الانسان لم يكن إلا الخطوة الأولى نحو تقدم الجنس البشرى . قد تكون هـــذه الفكرة مبهمة ، ولكنها تظهر واضحه إذا نظرنا إلى تاريخ تطور العلوم ، فنجده في الواقع سلسلة أخطاء وقعت في مختلف أطوار الزمن . ولكن من ذا الذى يقول أن العلوم هي وحدة تلك الاغلاط المتفرقة . كذلك تطور القانون معناه عدة ثورات ضد العرف . ولكن من ذا الذى يقول أن القانون هو وحدة تلك الثورات .

ان هذه الثورات التي كانت تقام ضد العرف ماهي إلا الرأى العام ، وأحكامه أقوى من أحكام القانون بغض النظر عن صحتها أو فسادها . فللرأى العام من القوة ما يغير بها الدستور الأخلاقى والقانون . وما العادات الاجتماعية التي سميناها العرف إلا أحكام الرأى العام ، جمعها الشعب في عدة قرون فرسخت في نفســـه وفي نفوس أمثاله . فاثبتتها الوراثة في النفوس إثباتاً لا يمحى .

والخطوة الأولى التي أدت إلى إنتصـار العرف هي معرفة



طوطم احدى القبائل ، وهو كالمبدأ أو الآله ويعتبر المصدر الأول للشرائع والقوانين

الحق . وقلما بقيت مطالب الحق جامدة ثابتة ، فتغير العرف كان يتبعه تغير فى الحق . وقد تنفرد بعض أوامر الأخلاق تدريجياً بسبب إعتزال العرف، ولكنها لا تلبث أن تفقد حيويتها وتسقط .

فاذا لم يحكم العرف فلا وجود للأخلاق . ومهما اتسعت دائرة الأخلاق أو صغرت فالانسان غير المقيد بالعرف يعتبر بعيداً عن الأخلاق ، لأنه يعتمد على نفسه لا على العرف ، ولكي يكون الانسان أخلاقيا ، أى متبعاً فضائل معينة ، يجب أن يخضع لقانون قائم على التقاليد المؤسسة منذ أمد بعيد .

كان كل نمو لتقاليد جديدة متبوعاً دائما باكتشاف مبادىء جديدة للحق . فكان كل تغير فى عنصر يتبعه تغير فى الآخر بالنسبة للحالة الثقافية والصلات الاجتماعية الموجودة . وعلى ذلك تعاون العرف والحق ، وسهلا للانسان تكييف نفسه مع أحوال المدنية المستحدثة .

وقبل أن يوجد القانون بمعناه التام ، كان الانسان الأول محكوماً بعدة خرافات ، فعلت ما لم تفعله القوانين والعقوبات البدنية ، لتثبت فى عقله إحترام الحياة البشرية واحترام الملكية الشخصية . وبدون التقاليد تفنى الجماعة ويسير العالم محكوماً بعدة قتلة ولصوص .

لم يتمكن الانسان الأول من كبت غرائزه قبل وجود القبيلة .

كان كثيراً ما يقتل إنسان آخراً بسبب الطعام ، فليس هناك أى قوة خارج نفسه تمنعه عن القتل أو السرقة ، ولكن وجود القبيلة أوجد عدة تقاليد كان لها شأن كبير فى تكييف عقل الانسان .

كان واجب وحق الانسان الأول أن يأخذ القانون فى يديه ، وكان هذا القانون هو ما نسميه بالانتقام ، ويعتبر أخذ الثأر أول الفروض الاجتماعية التى تمثل كل مايعرفه الانسان عن القانون ، غير أن قاعدة الدم بالدم لم تكن تسرى داخل القبيلة ، لذلك اقتصت الجماعات الفطرية من كل مخطيء خارج قبيلتها فقط .

إذا قتل أحد أفراد قبيلة آخراً من قبيلة أخرى ، فالقتال بين القبيلتين يكون نتيجة طبيعية لهذه الجريمة ، لأنه لم يكن فى الامكان معرفة الفرد المسئول عن هذا القتل ، ثم تطور هذا النظام حتى تمكن الأنسان من تحديد المسئولية ، فكان يمثل الفريق المنتقم فرداً يكون غالباً من أقارب القتيل ، ابنه أو أبيه أو أخيه . كان هذا الفرد يقف موقف المدافع بينما يعتبر الآخرون فى حكم الشهود . وكان ذلك أول عهد الانسان بالمبارزة القانونية ، ويعتبر هذا تقدما بالنسبة للجماعة المضطرة للقتال ، لأن الشخص الوحيد الذى يصبح مسئولا هو الفرد الذى ارتكب الجريمة ، ثم لم تعد المبارزة بعد ذلك مرضية لتسوية الحساب حيث كانت تتيح للفريق القوى الفرصة

لاضافه قتيلا آخراً للأول ، ولذلك كان القاتل مرغماً على الوقوف بين أيدى الفريق المنتقم ليقتص منه ، وبهذا التفاهم المشترك ينتهى الانتقام عند هذا الحد . ولكن غالباً ما كان يهرب القاتل عند حلول يوم القصاص ، فكان أقاربه ملزمين بدفع غرامة عنه . ولما ارتقت الملكية الشخصية ارتقى معها نظام الدية .

أما إذا كان القاتل والمقتول من نفس القبيلة ، فتسوية المسألة تتم ببعض الطقوس الدينيه (التابو) ، ويكون ذلك باعتبار الشخص الذى ارتكب الجريمة نجسا . يحرم على سائر أفراد القبيلة النظر إليه ، ثم يضحون حيوانا لروح المقتول ويطهرون القاتل بدمه .

كان الانسان يعتقد أيضاً أن التابو يعطيه بعض القوة السحرية التى يمكنه أن يعتمد عليها فى الاحتفاظ بممتلكاته الشخصية ، فيقوم ببعض الطقوس التى يظن أنها تجعل للشىء المراد الاحتفاظ به قوة سحرية يصبح بها خطراً على أى شخص يمسه خلاف صاحبه . فأمن الممتلكات تترك لمدة ما فى حماية هذه الطقوس عند غياب صاحبها . وإذا رغب إنسان حفظ ملابسه أو منزله أو طعامه فما عليه إلا أن يجرى طقوس التابو عليها وبذلك تصبح فى أمان . وتنحصر هذه الطقوس فى وضع علامة على أسلحته ، أو ربط حزمة من الحشيش بقاربه .

أوإغلاق باب كوخه بقطعة من القنب ، فان هذه الأشياء تحمل اللعنة لكل من يقتربها ، أى تصيبه بالمرض .

لقد كان من الخير فى حالة عدم وجود القانون وشراسة أخلاق الأنسان الأول ، أن تحكمه الخرافات بدلا من القوة الغشومة . وقد ساعدت طريقة التابو على جعل الأنسان الفطرى يعيش فى جماعات منظمة يندر فيها القتل والسرقة ، بعيدة عن الفوضى والفساد .

كان لهذا النظام شأن عظيم فى تطور القانون والخلق ، وهو ليس من وضع مشرع ولكنه النمو التدريجى لعدة خرافات أعطاها طمع الرؤساء والسحرة بعد ذلك اتساعا صناعيا . وفى خدمة قضية البخل والطمع خدمت الخرافات قضية المدنيه ، فقد أوجدت آراء حقوق الملكية ، وقدسية الحياة البشرية وعقدة الزواج . وبمرور الزمن نمت الأفكار وأصبحت قادرة على الوقوف بنفسها وطرحت سندها المكون من الخرافات التى كانت عمادها الوحيد فى الأزمنة الأولى .

ذكرنا ما كان من شأن الملكية الشخصية فى الأزمنة الفطرية ، أما الملكية على أتمها فلم تظهر إلا بعد ظهور الزراعة .

لقد جهل الأولون الزرع والتدجين ، فكان معولهم فى العيش على الحاصل من صيد البر والبحر . فالغنيمة التى تصطادها الجماعة تكون ملكا للقبيلة ، والزورق الذى يستعمل

لصيد الأسماك يكون ملكا مشتركا ، ولكل قبيلة منطقة برية أو بحرية تدافع عنها وتحميها من كل مغير . فكل ما للجماعة ملك لافرادها . ولا سلطان لأحد على آلة أو أداة إلا وقت استخدامه إياها . ولا وجود لما يعتبر ملكا فرديا اللهم إلا القليل من المغانم أو قطع الحطب مما لا يزيد عن حمولة الرجل وبعض المتاع الشخصى كالملبس مثلا . فالملك المشاع هو أول أشكال الملكية .

ولم يغير عصر الرعى من نظام الملكية تغييراً أساسياً . لأن المرعى يستلزم أرضاً متسعة . وانتشار القطعان مثله مثل الصيد لابد أن يكون فى منبسط من الأرض لا يستطيع امتلاكه فرد أو اسرة تعجزهما حراسته . ويتعذر عليهما الدفاع عنه . فتحتمت المشاركة على الشعوب الراعية كما تحتمت على الشعوب الصائدة .

أما الاهتداء إلى الزراعة فهو الذى أدى إلى أول تغيير فى نظام الملكية . فقد كانت الفلاحة من المشقة بمكان ، ولذا لم يباشرها الرجل إلا ومعه أولاده ونساؤه وعبيده إذا وجدوا . غير أن الأرض لم تستثمر من ثم بالاشتراك كما كانت مناطق الصيد الكافية فى اطعام القبيلة ، فانفرط عقد الاسرات وانتحت كل أسرة ناحية ، وجعلت تفلح لنفسها ، ولا تسمح لغيرها بشىء من حاصل كدها . وكذلك حلت ملكية الأسرة

محل ملكية القبيلة .

ثم تحول الملك العائلي المشترك بتكاثر النسل إلى المقاسمة ، وهي اقتسام ما كان مشتركا فيأخذ كل قسمه ، وعلى هذا النحو قسمت الأرض أقساما وأعطيت حصصا . وكان ذلك بدء الملكية الفردية .

هذا مجمل تاريخ تطور الملكية وهي لازالت في تغيير وتبديل ، ولننظر الآن في نشوء الأخلاق وتطورها .

توصل الأنسان الفطري إلى معرفة حق الآخرين وواجبه نحوهم قبل أن يعرف حقوق وواجبات نفسه ، لأنه إذا أساء إلى آخر فهو مكلف بتقديم حساب عن هذه الأساءة ، بينما قد يسيء إلى نفسه أو لا يقم بواجبه نحوها دون أن يعرف ذلك . فلما ارتقت المعتقدات فرضت على الأنسان واجبات نحو نفسه فساعدت على ترقية الضمير وتوسيع دائرته . لذلك تعتبر التعاليم الدينية من العوامل المهمة التي كونت الأخلاق فالرهبة من الجحيم والأمل في النعيم من الدوافع الجوهرية على احترام التعاليم الأخلاقية .

وقد ساعد على ترقية الأخلاق وجود روح التضحية في الأنسان ، فهي لا تقتصر على حفظ النوع بل تتعدى هذه الحدود الضيقة وتفيض خارجها . ومع أنه مفروض على الأنسان أن يكون خيراً لأن الخير لازم لحفظ النوع ،

إلا أن خيره يفيض عن القدر المطلوب لهـــذا الشأن . فليس خير الأنسان خيراً من ضروب الاحسان التى يتفضل به الناس حتى يضمنوا لهم وجوداً اخلاقياً فقط ، ولكنه خـــير فائض يهب منه الأنسان مايهب فى سبيل حفـــظ النوع ويفيض منه مايستطيع أن يقول عنه أنه (الخير للخير) وعلى هذا القدر الفائض من الخير تقوم الأخلاق الأنسانية .

لذلك كانت الأخلاق أرقى درجة من القانون ، تكون شريعة ثانية فوق القانون ، تشمل واجبات اجتماعية كثيرة تتصـــل بالحق والعرف ، وتتنوع كما يتنوع القانون حسب البيئات والأزمنة .

ويختلف القـانون عن الأخلاق فى عدة نواح ، فهـــو : أقل اتساعا من الأخلاق ، ينظر فى واجبات الفرد نحو الجماعة ، بينما تعين الأخلاق واجبـــاته نحو الله ونحو نفسه ونحو بقية الأفراد ، كما أن المبـادىء الأخلاقية لاتطلب عدم الأساءة إلى الآخرين فقط بل العمـــل على الأحسان إليهم أيضاً ، بينما يطلب القانون عدم الأساءة إليهم لاغير . والأنسان إذا خالف القانون كان مسئولا أمام القضاء وعوقب من أجل مخالفته ، وإذا خالف أوامر الأخـلاق كان مسئولا أمام الله وأمام ضميره فالمسئولية الأخـلاقية أوسع دائرة من المسئولية القانونية .

الفن

يشترك الانسان مع الحيوان فى ضرورة التعبير عن عواطف الفرح والألم والخوف والغضب والحب ، وهـذه التعبيرات الناطقة لاتكاد تتعدى فى الحيوان حدود المنفعة ، ورغم أن حدود المنفعة لازالت أصولها مغروسة فى الانسان . إلا أنها قد تفرعت وامتدت شعباتها ، فعلت بذلك أصول تجربتهـا التى غرست فيها الغرس الطبيعى الأول ، فالانسان له فيض من نشاط العاطفة يزيد بكثير عما تتطلبه الحاجة الى سـد مطالب منفعته وحفظ نوعه ، وهذا الفيض من نشاط العاطفة يشق لنفسه طريقاً ينفذ به ويرفه به عن نفسه ، وهذا المنفذ هو نتاج الفن .

القدرة على اللعب من الخواص التى رفعت الانسان عن الحيوانات . فالتعبير عن الشخصية بدون النظر إلى أى غرض ، والارتفاع بالنفس فوق متاعب الحياة ، والنشاط الحر ، وعدم تحكم ضروريات الحياة ، كل هذه خواص اللعب والفن . فاللعب كالفن يمثل فى الأحوال الفطرية شـعور الانسان بالهرب ولو وقتيا من تحكم الوسط الطبيعى ، لذلك يلهو الانسان دون أن يقصد غرض معين ليبرهن على تحرره من ضغط العـالم الخارجي ، أى أنه يتحرر وقتيـا فى محاولتـه تكوين توازن بين

نفسه وبين ضروريات الحيـاة ، بغرض التغلب على الاخيرة .
والانسان يتصل إتصالا وثيقاً بقوانين الطبيعة الثابتة . ولـكنه
فى اللعب والفن ينمي شخصيته . ولا يتأثر هذا النمو فى اتجاهه
أو غرضه بالعالم الخارجى وقواصره .

قلنا أن من الفروق الموجودة بين الانسـان والحيوان أن
الأول يكرس جزءاً من وقته فى أعمال غير مفيدة ، أى لا تتصل
بحاجاته الحيوية . والرسم والنحت تعتبر ضمن هذه الأعمـال .
ودوافع الفن عديدة أهمها ميل غريزى يدفع الانسان الى إيجاد
أشياء أو تقليدها ، والتخفيف من شدة العاطفة بالتعبير الخارجي ،
والرغبة فى الحصول على القوة السحرية للتسيطر على الطبيعة ·

كان الألهام لا يأتى قديماً من حب الجمال بقدر ما يأتى من الاعتقاد
بان قوة الصورة تعطى قوة للشيء . فلـكى يكون الصيد ناجحاً كان
الانسان يكرر رسم الحيوان الذى يريد صيده ظنا منه بأن ذلك
يؤدى الى وفرة الحيوان ، أو يرسمه هالكا أمامه معتقداً أن ذلك
يتحقق فى الصيد .

وقد ابتدأ النحت بصناعة تماثيل الآلهة أو أوثان الأسلاف
وصناعة الأقنعة لـكى تلبس فى الحفلات الدينيـة . وعلى توالى
الزمن وجد الانسان لذة نفسية فى أعماله الفنية فأعجب بهـا
لاتقان صنعها وجمـــال شكلها ، ومن ثم أخـــذ الفن يتخلص
من الصنعة والدين .



بعض صيادى الغزلان فى عصور ما قبل التاريخ ، كما وجدت
صورهم منقوشه على الكهوف

وهنـاك عامل آخر فى تـكوين نزعة الجمال وهو الانتخاب الطبيعى حيث يعمل الذكور على أن يحوزوا إعجاب الأناث . والفائز هو من يزداد إعجاب الأناث به . ويكون ذلك بالتزين ، أحد مظاهر الفن الأولى . ومن ذلك وضع الريش على الرأس ووضع حلقات بالأنف والأذن ووضع سواراً بالمعصم والـكاحل ووشم الجسم . ومن شأن هذه الأشـيـاء مساعدة صاحبها على حيـازة إعجاب أعضاء الجنس الآخر . لذا كانت الرغبة الجنسية من عوامل تـكوين الجمال .

للنزعة الفنية ناحيتان ، الأولى تتصل بالتطبيق العملى على الحياة والثانية تتصل بالعبادة ، ولو أنه ليس هنـاك حد للتمييز بين الناحيتين . فان مصدر الفرق بين الفنون الجميلة والفنون الصناعية دائم الوجود منذ نشوء الفن . من العبادة نشأت الصور والتماثيل على شكل خشن . وهى ليست رموزاً إنما هي الأثواب أو المساكن التى تتقمص فيهـا الأرواح . والروح قد تحل بأى مكان وفقا لعقائد الانسان المختلفة . فى النبات أو الحيوان أو الحجر . وأهم من هذه الأشياء كلها ، حلول الروح فى صورة أو تمثـال حيث يعكس خواصها رمزياً . ولذا مثلت أرواح الأسلاف فى صور ساذجة . ومما يثبت ذلك احترام وعبادة الجثث فى العصور القديمة ، وهذه الصور هي أقدم أمثلة فن التصوير . أما أقدم الأوثان

فلم تكن إلا دميات خشنة .

ومن الدين أيضا نشأ الشعر . حيث أخذ الاعتقاد ـ بأن أرواح الراحلين هي نفسها أرواح الحيوانات ، وكذلك جميع أنواع التناسخ ـ شكل حكايات خرافية. تطورت الأفكار الخاصة بالخالق والعالم إلى ميثولجيات ، وأصبحت قصص الأبطال قصصاً شعرية وهكذا مجدت خرافات الحياة العالم الخارجي ، فكانت تعبيراً عن الوحدة مع الطبيعة وكانت شكلا من أشكال الملاحم الشعرية .

وقد نشأ فن التمثيل من الطقوس الدينية أيضا . وخير مثال لذلك ماتتضمنته طقوس العبادات الطوطمية من حركات وأعمال لها مظهر الجمال ، فكان المحتفل بالقداس يصف مرتلا الأدوار المختلفة التي مر فيها الحيوان الطوطمي . فيقلد بعض السامعين الحالات الموصوفة ، وبعبارة أخرى يصورون بطقوسهم تاريخ أسلافهم الخرافي . وعند ماينتهي القداس يعتقد المحتفلين أن الروح الطوطمية ستتضاعف ، فالدراما نشأت من فكرة التشخيص ، أي تملك الانسان روح مخلوق آخر يتكلم ويعمل خلاله . فالأشكال الأولى للأقنعة التي يلبسها الانسان لتمثيل المخلوقات المختلفة حقيقية أو خيالية ترجع إلى الفكرة الشائعة في أن الروح تقطن العالم الخارجي ، أي الأشكال المرئية ، وبواسطة تقليد مظهرها الخارجي يصبح الانسان نفس الروح .

ولم تكن الأقنعة الوسيلة الوحيدة فهناك أيضاً شعور وريش الحيوانات المراد تقليدها.

لا تقتصر النزعة التمثيلية على محاولة تقليد الحيوانات بل تتعدى ذلك إلى تمثيل أعمال الحياة العـــادية فى شكل رمزى. فهناك رقصات للحرب ورقصات للصيد وغيرهما.

لم يكن للانسان فى العصور السالفـــة غير أفكار متبلبلة غامضة ليعبر عنها الفن تعبـــيرا أبترا ناقصا، ولا يمكن اتمامها وإيضاحها بواسطة ذلك التعبير، لذلك كان الفن المميز لها هو فن يغلب فيه العنصر المادى على العنصر الوهمى، ثم لما أخذت أفكار الانسان فى الجـــلاء والوضوح استوى العنصر الوهمى والعنصر المادى وتغلب الأول على الأخير وامتاز الفن بتمكن العواطف والأفكار البشرية فيه، ونوالها أقصى حرية وسيادتها على الأسلوب المادى فحطمت أصفاده وقيوده وعبرت عن نفسها بأسلوب خيالى.

نلخص ما مر فى أن عنصر المنفعة كان العنصر الغالب للفن فى العصور الأولى، وأكثر ما نسميه اليـــوم بالفنون كان فى وقت من الأوقات يرمى إلى إيفاء الحاجيات الضرورية للفرد والجماعة، أما ما نتج من السرور الفنى فقـــد أتى تبعاً للمنفعة، وعلى توالى العصور تلاشى غرض المنفعـــة وأصبح السرور غرض الفن الوحيد وذلك ناتج عن ملاءمـــة البيئة

والتربية وتكوين الذوق والاحساس الدقيق وكلها لم تكن متوافرة لدى الانسان الأول فحجزته عصوراً عن التعبير الفني وحالت بينه وبين السمو فى التعبير .

رغم أهمية الفن فى الحياة ، فان له مكانة عظيمة فى خدمة التاريخ . فقد دلتنا الآثار الفنية القديمة على حال الجماعات الغابرة من حيث التقدم والتأخر ومن حيث الرفاهية والانحطاط . فلم يقتصر أثر الفنون على قيادتنا إلى تحديد القدرة الفنية والمشاعر النفسية ، بل قادتنا أيضاً إلى تحديد القدرة العقلية التى نشأ الفن من سموها .

هناك صلة عظيمة بين الجمال والفن ، فليس الأول إلا مجموعة الصفات المسرة للموجودات ، والفن هو المعبر عن هذا الجمال ، لذلك يختلف تقديرنا عن تقدير الفنان لأنه يرى جمالا فيما لا نستطيع أن نرى نحن فيه جمالا . فهو يرى بعين غير التى ترى بها المجموعة الموجودات .

أما صلة الفن بالمعرفة أو العلم فتتلخص فى عدم استطاعتنا فهم الأول إلا عن طريق شخصيتنا ، بينما العلم مجرد من القوة نستطيع أن نستفيد منه بواسطة فهمنا ولكن لا يمكننا أن ندركه من طريق شخصيتنا . فالفن كالحياة كلاهما نما بقوة ذاته ، والانسان قد تمتع بالحياة دون أن يضع لها تعريفاً تاماً .



الانسان هو الكائن الوحيد الذى أحس بتلك الدنيا الواسعة
فاستخدم السحر ثم الدين وأخيراً العلم لكى يعرفها ويسود عليها

المعرفـــة

الـكلام هو الحد الفـاصل بين الأنسان والحيـوان ، وإذا كانت اللغـة وليـدة العقل فان العقـل وليد اللغة ، فكما أن اللحم يعتمد على العظم كذلك تعتمد خـــلايا انسجة عقولنا على مددهـا من الـكلمات ، والعبقرى هو من كان فى نضال مع أفـكاره التى هى أعمـق من الـكلمات ، حتى يذغمها فى معان مجسمة لفظيا ، فيرفـع بذلك ثقـــافة الأمة . وليست الأفكار إلا ثمرة الألفاظ .

استخدم الأنسان فى تطوره عدة طرق للمخاطبة ـ الأشارة والصياح ، والتكلم ثم الرسم وأخيراً الـكتابة . وهـــذه هى الأدوار التى مرت بها اللغة .

كانت الألفاظ الأولى بسيطة لا تتعدى بعض أمثـال وقليل من الأسماء مكونة من مقطع واحد ، ولغـة الأطفال أكبر دليل على عدم قدرة الأنسان القـديم على نطق كلمات مكونة من عدة مقاطع ، ولمـــا استعملت الكلمات الغراماطيقية أو النحوية ساعدت على تـكوين اللغة ذات المقاطع . وبالاشتقاق ابتدع الأنسان من الـكلمات الـتى تدل على الأفـكار السهلة الواضحـة كلمات تدل على أفـكار مركبة عويصة ، وكان ذلك أعظم

طريق سار فيه الأنسان من الجهل إلى المعرفة .

كانت الكتابة فى أول أمرها تمثيلا لأطراف الاشياء ثم اختصرت الخطوط فانتجت صورا قريبة من أصولها قربا ما وهذا هو دور تصويرالفكرة ، وتلاه دور تصوير الصوت ، وذلك لما تغلبت العلامة المميزة لصوت الكلمة على مدلولها فى الاعتبار ، والدور الأخير هو دور التصوير بالأحرف وذلك لما حللت الأصوات إلى عناصرها الأولية ، وأشير إلى كل عنصر منها بعلامة ، ومن تركيب هذه العلامات أو الحروف تألفت الكلمات .

واللغة هي البذرة فى الثقافة ، والثقافة هى النتاج الحى لتفاعل عقل مع آخر ، ومحصول الأفكار والمشاعر ونواحى النشاط المشتركة بين العقلين ، وبدون العمل لا تكون هناك ثقافة ولا تقدم فى الذكاء ، والثقافة هى ضمن التقاليد الاجتماعية التى اعتادها الانسان يبطء وثبات . وبانتشارها جعلت الانسان يمتاز على بقية المخلوقات .

تفوق الانسان لأنه الحيوان الوحيد القابل للتعلم وللملائمة مع البيئة . وتعتمد قابلية التعلم أى القدرة على التفكير على الذاكرة . وهذه الذاكرة هى سبب تفوقه العقلى ، كما أن غريزة التفكير ساعدته على تقليد لغة أسلافه ، بل صفاتهم العقلية أيضاً . أى أن الأنسان لم يقتصر على تقليد معلومات وعقائد

أسلافه ، بل قلد عادات تفكيرهم أيضاً ، والفرق الموجود بين عقلية البالغ وعقلية الطفل تنحصر فى أن للأول ذاكرة ملأى بكثير من الاختبارات ، بينما ذاكرة الثانى خالية من هذه الاختبارات .

عاش الأنسان قرونا عديدة لا يعرف غير حاجاته المادية ولا يشغله شيء غير التنازع على البقاء ، قد عرف العمل قبل أن يعرف التفكير ، لأنه كان مضطراً إلى أن يلائم بيئته الطبيعية قبل أن تتوفر له القدرة أو أوقات الفراغ لكى يحاول فهمها .

من المحتمل أن تفكير الانسان الأول كان كتفكير الطفل ، أى سلسلة من الصور الخيالية التى يتصورها أو تمر بمخيلته ، كما يفعل الطفل أو الجاهل اليوم ، والواقع أن التفكير المنطق حديث العهد فى تاريخ التمدن البشرى ، لم يكن له تأثير يذكر قبل أربعة آلاف عام مضت وهو مازال من صفات أقلية بسيطة فى عصرنا الراهن ، فليس كل أنسان قادرا على سيطرة وتنظيم أفكاره ، وأغلب الناس يعيشون بالمخيلة والعاطفة .

المعرفة من ضروريات الانسان لأنه يستعين بها على العيش ، لذلك كان الانسان مضطراً إلى معرفة المحيط الذى يعيش فيه حتى يجد ملجأ يأوى إليه ويستمد منه حاجته من

الغذاء ، ومن المواد التى يقيم مسكنه منها ، كما أنه كان مضطراً إلى أن يعرف شيئاً من مناخ محيطـــه حتي يتمكن من تكييف نفسه حسب تغيراته وتطوراته . لذلك كان الأنسان بمعارفه الساذجة طبيعيا فى إشعاله النار ، وكيمائيا فى طهيه الطعـــام ، وجراحا فى تضميده الجروح ، وجغرافيا فىمعرفته أنهار وجبال المنطقة التى يقطنها ، وتعتبر هذه ، الأصول الأولى للمعرفة ، والتى وصلت فى تطورها إلى أن تكون علوماً تامة .

يعتبر العد والقياس أول الطرق العلمية . ابتدأ العـــد على الأصابع فللدلالة على العدد واحد أو أثنين أو ثلاثة أو أربعة كان يستعمل الانسان الخنصر والبنصر والوسطى والسبابة وللدلالة على العدد خمسة كان يستعمل كفه ، والعدد ستة كفاً وابهاما ، وعشرة كفين ، وخمسة عشر كفين وقدم ، وعشرون رجلا ، واربعون رجلان وهكذا كانت الأصبع والكف والقـــدم والرجل وسائل العد الأولى .

وكذلك كان القياس يقوم كالعدد على الجسم فالقدم والشبر والقيراط والزراع ماهى إلا أعضاء الأنسان استعملت وسائلا للقياس .

بينما كان جسم الأنسان الأصل فى علمى الحساب والهندسة كان السحر البذرة الأولى فى علمى الطب والفلك . فعلم الطب يدين بأشياء كثيرة إلى السحر القديم . ومن الغريب أنه أخذ فى

السنين الأخيرة ينتفع بالايحاء كوسيلة للتأثير على الجسم بواسطة العقل الباطن .

كان الاعتقاد بأن للكواكب إرادة ذاتية قادرة على نفع وضر الانسان ، سبباً فى نشوء التكهن بالغيب عن طريق هذه الكواكب ، فأدى ذلك إلى نشوء علم الفلك .

استخدم الانسان السحر فى سعيه لمعرفة العالم . ومن أنواع السحر التى مارسها الانسان : السحر بالمثل أو سحر العدوى Homoepathic Magic وهو استخدام جزءاً أو أثراً من حيوان أو انسان لتمدنا بالسلطة عليه وينقسم هذا النوع الى قسمين السحر الاسود ويقصد به الساحر قتل شخص معين ، وسحر الحب ويرمى به انسان الاتصال بآخر ، وهناك نوع آخر من السحر هو سحر التقليد أو المحاكاة وهو تقليد الساحر حركات القاتل إذا أراد قتل انساناً بعيداً عنه . وكانت أهم خواص الساحر قوة الارادة والشعور بالقوة .

ان عقيدة الانسان فى أن لكل كائن قوة سحرية كانت من الوسائل التى استخدمت لمعرفة الحقائق ، كان الانسان يظن أن للنجوم تأثيراً عليه ، فحدد مواقعها ولاحظ حركتها ليعرف مصيره . وقبل أن تقوم على الاعداد حقائق رياضية كانت ذات خواص سحرية ، وليس أدل على ذلك من الخرافة التى لازالت متعلقة بالعدد ١٣ كما أن كثيراً من الأشكال

الهندسية كالمربع والدائرة والمثلث لحقتها الخواص السحرية .
تدرج الانسان فى طريقه للوصول الى المعرفة من السحر الى الدين . كانت المعتقدات الدينية تمثل الحقيقة الموجودة فى الماضى والممثلة فى المعبود المقدس . كل معضلة يجهلها العقل كان الانسان ينسبها الى الروحيات . لذلك كانت الأفكار الميتولوجية تشمل جميع الظواهر الطبيعية . كان الانسان لا ينفك يرى فى جميع قوى الطبيعة شخصية وإرادة مثل ماعنده من الشخصية الخاصة أو الارادة الذاتية من حيث كونه عاملاً شاعراً . ولم يكن الانسان يدرك الفرق بين الكيان الحى وغير الحى ، فكل ما يتحرك أمامه حى وعلى ذلك فهو مريد ، فالشمس التى تشرق وتقطع السماء وتغرب ، والريح التى تهب ، والرعد القاصف ، كلها فى عرفه شبيهة به فى غدوه ورواحه ونومه وبطشه .
كانت الصفة المميزة لجهل الانسان عدم الدهشة ، وعدم التفكير فى الصعود الى الأسباب ، فكان لا يبحث عن ايضاح الظاهرات . قد ترعبه الظواهر الكونية ولكنها لا تدهشه ، ولا تسمح له عقليته فى تتبع أسبابها . ولما أخذ الانسان يدهش للظواهر الطبيعية حاول معرفتها ، فكانت هذه المعرفة أكثر مما تتطلب منه ضروريات العيش ، ومن ثم أخذ الانسان يتمتع فى بعض هذه الزيادة من المعرفة بلذة الحرية . ويصرح بافتخار أنها (المعرفة للمعرفة) .

الحضارة المصـــرية

البيئة والسكان : أوجد النيل كل مافى مصر وجدده ، من الأرض إلى الحاصلات ، ومن الأنواع الحيوانية الى أعمال الناس ، ومن الأخلاق الى النظم السياسية والاجتماعية .

اقتطع النيـــل مصر من جسم الصحراء ، فليست مصر فى الحقيقة إلا واحـــة طويلة يبلغ طولها مايزيد على مئى فرسخ بقليل فى عرض يختلف من كيلو متر الى عشرين ، أما الدلتا المثلثة الشكل فعظيمة الخصب ، لم يقتطعها النيل من الصحراء وانما اقتطعها من البحر فجاء بها ذرة فذرة فى مئات القرون .

وكل مافى مصر متوقف على فيضـان النيل ، ولذا عزا اليه قدماء المصريون انتظـام فيضانه فألهوه ، واعتقدوا أن فيضانه المبارك تولد من دموع الربة ايزيس وهى تبكى زوجها اوزيريس .

وبالرغم من أن النيل المعول الأول فى حيـــاة مصر إلا أنه لا يستغنى عن اليد البشرية تعينه على اكساب مصر الخصوبة ، فطغيان فيضانه وتحاريقـــه يضران بالأرض على السواء ، لهذا عولج النهر باقامة الجسور واحتفار الأقنية التى توزع الماء بالقسط على مختلف الأراضى ، وانشئت الخزانات لاختزان المـاء اذا زاد ، لحين قلة ماء النهر واشتداد الحاجة اليه فى الأراضى العالية ،

وقد كانت هذه الأعمال تجرى من اول تاريخ مصر فى كل مجرى النيل بنظام ، ومن أجل ذلك كان الرى محتاجا فى ادارته لسلطة مركزية ، وفى كل وقت حدث فيه أن جزئت هذه السلطة أو نقصت بسبب الفتن أو العدوان ، تأثرت البلاد برمتها فى أمور معاشها وتفشى الضنك والمجاعات . فكانت الملكية المطلقة هى المظهر الوحيد للحكومة الممكنة فى مصر ، وكانت الوحدة الوطنية الكبرى الأولى التى عرفت فى تاريخ الحضارة البشرية ، والتى كانت أول معين على ظهور أقدم الحضارات على وجه المسكونة .

أوجد النيل الزراعة فى مصر ، فاجبرت المصرى على أن يعرف صناعة البنـــاء وتدجين الحيوان والتوقيت ثم الكتابة ، وبوجود الزراعة بمصر وجـــدت هيئة اجتماعية منظمة رئيسية للبلاد ووجد نظام للكهنة وأوقاف للمعـــابد وصار الدين عقـائداً ثابتة لا تتغير ، لهذا كانت مصر أول قطر عرف الحضارة فى العالم .

سكن مصر قبـــل التـاريخ أقوام من الجنس الافريقى الأبيض أو من جنس البحــــر الأبيض المتوسط . كانوا غالبا صيادون يقتاتون مما تنـاله رماحهم وتصيبه سهامهم ، لم يزاولوا الزراعة ولم تتوجه اليها أفكارهم .

ومنذ زمن بعيد لا يبلغـــه التصور نزح إلى وادى النيل أقوام من أصل آسيوى حاميون سـاميون ، وفدوا على الوادى



بناء الاهرامات حين كانت الحضارة المصرية فى أوج مجدها

فى عدة مرات متعاقبة ، وعمد هؤلاء المغيرون الأسيويون الى دفع السكان الأصليين أمامهم ، أو استغرقوهم ، ولكن لا بد من وجود مخالطة ضعيفة حدثت بين الطرفين نخرج منها المثال المصرى السوى .

كان المصريون يظنون أنفسهم أصلاء الجنس ، وكان فى روعهم أن الآلهة أوجدت جنسهم من القدم بوادى النيل وبعد ذلك حكم أولئك الآلهة البلاد وعلموهم إدارة أمر النيل وجغرافيته وسنوا لهم النظم والقوانين ، فعاش أجداد المصريين سعداء تحت رعاية الآلهة ، وكل ما فى مصر من حسن جميل صادر عنهم مباشرة فكان عهدهم عهد بركة وسلام ووفرة .

وقدابتدأت الحضارة المصرية منذ مايقرب من ثمانية آلاف عام ق . م . ولم تتغير مظاهرها إلا بعد دخول المسيحية ، وسنستعرض فى هذا الفصل أهم مظاهر هذه الحضارة التي انتهت عام ٥٢٥ ق . م .

الدين : يعتبر الدين أهم عناصر الحضارة المصرية ، ولا غرو فليس هناك ما هو أقوى منه فى حياة الانسان القديم ، لقد شمل تأثيره جميع نواحى النشاط ، حيث غذى خيال الانسان بما قدمه من صور عن العالم ، وحكمه بالمخاوف التى أوجدها ، وكان مرشداً لتصرفاته ، وتقويماً لزمنه بما نظمه من أعياد ، وكذلك أوجدت عاداته الخارجية التعاليم

وكانت الدافع نحو التطور التدريجى للفن والأدب والعلم .

وتقوم ديانة المصريين على دعامتين ، عبـــادة الأسلاف وبعض الحيوانات ، فكانت عبادة المومياء شائعة فى مصر سواء كانت لقريب مات منذ زمن أو للملك بعيـــد القدم ، لذلك كان الاآله غالبـــاً هو الملك الميت ، والملك هو الاآله الحى ، وقد ظل المصريون يحتفظون بأجســـاد موتاهم ويعبدونها تحت عناية الكهنة ، متخذين لذلك مراسيم غامضة لا حصر لها .

والصبغة الأساسية لسواد الآلهـــة المصرية أنها كانت آلهة محلية بحتة ، فكل مديرية وكل مدينـــة كان لها آلهتها . وأهمية الاآله تتبع أهمية المدينة التى يعبد فيها . ولمـــا نما الاتصال التجارى والادارى عن طريق الاتحاد السياسى ، لم تمكث هذه العقائد المتباينة ، والمتنافرة محلية ، بل تحولت إلى خرافة مركبة معقدة . ولم يستطع الكهنوت (منظم الدين) حصر هذه العقائد المتفرقة فى نظـــام واحد ملتحم ، فبقيت كما جمعتها الحوادث والظروف فوضى من المتناقضـات . وللآلهة مراتب بعضهـا فوق بعض . وكان المفترض أنها تعمـل أحياناً معاً تبعاً للظروف واختصاصاتها ، فكان الناس يدعونها معا أو يخلطون بين أسمائها ، غير أنه لم تكن كثرة الآلهة دليلا على أنهـا كانت موضع عبـادة من الجميع ، لأنه لم يكن لكثير منها وجود إلا فى الأساطير ، كان المصريون يعتقدون بقلة الفروق بين البشرية

والألوهية ، لذلك كانت بشرية جميع الآلهة من الأمور العادية جداً عند الكهنة والشعب .

كان أوزوريس أعظم الآلهة على الاطلاق ، وكانت ديانته عامة فى وادى النيل ، وقد كان على الأرجح ملكا قديماً جداً تحول الى آله محلى ببلدة تيس أو تينيس ، ولما كان مينا ينتسب لهذه المدينة فان حكمه لم يقتصر على توحيد مصر فحسب بل على توحيد آلهتها أيضاً ، وبعبارة أخرى عظم أوزوريس بارتقاء مينا ، وتتلخص أهم أسطورة عنه والتى كان يعتقدبها أغلب المصريون : أنه كان متزوجا بأخته ايزيس وحاكما على وادى النيل . أوجد جميع الاختراعات التى جعلت الانسان قادراً على احتمال الحياة . نظم حقوق الملكية ورتب العائلة ووضع الشرائع وعلم فنون الصناعة والزراعة ، ثم قتله أخوه تيفون أو سيت ، فحنطت جثته زوجته ايزيس فكانت أول مومياء ، ثم تولى سيت مكانه ، ولكن لم يمض عليه سنون قليلة حتى هاجمه ابن أخيه هوروس واضطره لأن يتنازل له عن أرض الدلتا وان يبقى لنفسه الوادى الكائن فيما بين ضواحى منف ومدينة أسوان ؛ ومن ذلك الوقت لم يبق العالم دولة واحدة ، ولما انقسمت مصر الى مملكتين بارحها أولياء تيفون واشياعه وانتشروا فى البلاد المحيطة بها ، ثم حكم بعد هوروس عائلتان الهيتان من طبقة ثانية ، وبعد ذلك صعد الآلهة الى السماء

وقام الناس مقامهم فى ولاية الأحكام ، فجاء مينا من مدينة تينيس وأسس أول دولة بشرية .

والدعامة الثانية التى قامت عليها ديانة المصريين هى عبادة الحيوانات وقد نشأت عن العقيدة الطوطمية التى سادت جميع عصور ما قبل التاريخ ، فرغم أن كثيراً من القبائل كانت تقوم بعبادة الاسلاف ، إلا أنها ظلت تعتقد فى انتسابها الى أحد الحيوانات كالصقر أو العقرب ، فكانت فى أول الأمر تستأنس وتدلل وتحترم هذه الحيوانات لتضحيها على قبور أسلافها ، ثم تطورت مكانة هذه الحيوانات بسبب فوضى الأفكار وانتقلت من التقديس الى التأليه ، حتى أصبحت تشارك أرواح الاسلاف والآلهة الناشئة عنهم فى العبادات المقدسة التى تؤدى اليهم ، لذلك كانت الآلهة تتمثل فى أشخاص بشرية ، أو حيوانات ، أو فى أشكال تجمع بين جسم الانسان ورأس الحيوان .

وكان هناك نوع ثالث من المخلوقات المقدسة أو شبه المقدسة ، وهى آلهة العناصر ، أى آلهة الطبيعة . وأهم هذه الآلهة بلا شك نوت وسب ـ السماء والأرض ـ وترجع أغلب آلهة العناصر الى عهد البطالسة حيث أخذ المصريون عنهم التصورات المتعلقة بالكواكب . ولم يكن لأحد آلهة العناصر دور مهم فى عبادة الشعب غير رع ، غير أنها لعبت دوراً

عظيما فى جميع الأساطير المتعلقة بتاريخ الآلهة والعالم الذى خلقته ، وتتلخص أسطورة المصريين عن نشوء العالم فى أن الكون كان فى أول الأمر لجة من المياه يحيط بها الظلام وكانت الشمس مختفية فى وسطها . ثم ظهرت الشمس فخرجت الأرض والسماء من الماء مختلطتين ببعضهما وممتدة أحدهما على الأخرى . فكان رع الآله الأول وقد صدرت منه اشارة فتولد عنها زوج من الآلهة وهما شو وتفنوت فدخلا فيما بين الأرض والسماء وفتقا رتقهما ثم رفعا السماء على أذرعهما وابقاها معلقة فى الفراغ وبذلك ظهر زوج ثان من الآلهة وهما سيبو اى الأرض ونوت اى السماء .

وكانت الدنيا التى أوجدها هؤلاء الآلهة الخمسة أشبه بصندوق رباعى الشكل يكتنفه الماء ، قاعدته الأرض وغطاؤه السماء وجدرانه الجبال الشامخة التى تتكىء عليها السماء . ويجرى نهر عظيم على طول هذه الجدران تحت السقف السماوى بقليل وهذا النهر يجرى فى جهة الجنوب ثم يسيل فيما بين الجبال ، أو ينساب فى مجرى طويل تحت الأرض ويسبح فيه على الدوام زورق فيه الشمس ويخرج هذا الزورق فى كل صباح من المشرق منحدراً الى الجنوب وترسل الشمس الأنوار الى مصر ، وتدخل كل مساء فى الجبل من جهة الغرب ، ثم تولد من الأرض والسماء اربعة آلهة أولها أوزيريس

وايزيس ، انما تكوين العالم وجاءا بالحضارة والمدنية وثانيهما ست ونفتيس ، أتيا بالشر والموت .

كان المصريون يرون الحياة بعد الموت أهم بكثير من الحياة الدنيوية ، حتى انهم كانو يقومون بمعدات لاحصر لها نحو أمواتهم ، مشيدين لذلك مقابر خالدة على غرار مساكنهم حيث تقضى المومياء الجزء الأعظم من وجودها ، وذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن لكل انسان قرينا (كا) فاذا مات يخلفه قرينه فى حياته . وكان القبر يدعى قديما بيت القرين ، فاذا ما انفصلت الروح عن الجسد تلحق باوزوريس تحت الارض حيث تغيب الشمس كل يوم . هناك يتصدر أوزوريس فى محكمته وقد أحاط به الآلهة ، فيؤتى بالروح أمامهم ، تحاسب عما اقترفته فى الحياة ، وتوزن أعمالها بميزان الحق وتطلب شهادة القلب ، فالنفس الشريرة تعذب قرونا ثم تهلك والنفس الطيبة تطير احقابا ، وبعد محن كثيرة تنضم الى زمرة الارباب وتفنى فيهم .

وتستطيع الروح فى خلال هذه المدة الدخول فى الجسد لتستريح . ولذا اقتضى ان يظل الجسم سليما . ومن أجل ذلك كان التحنيط ، وكانت التماثيل الكثيرة المملوء بها القبر ، حتى انه فى حالة فناء المومياء يمكن الروح ان تجد مأوى فيها .

وكان يوضع بجانب المومياء كتاب الموتى ، وهو أعظم

وأول كتاب عرفه التاريخ ، ويحوى عـــلى ما ينبغى الروح ان تقوله فى العالم الثانى دفاعا عن نفسهـا امام محـكمة أوزوريس .

الأسرة : كانت الأسرة فى عهد قدماء المصريين على درجة فائقة من الرقى ، فلم يـــكن للرجل إلا زوجة شرعية واحدة ، إلا أنه كان لبعض الأغنياء نساء آخرين بجانب الزوجة الشرعية التى كانت تقوم بتدبير المنزل ، ولم يكن فى ذلك أى ادعاء شرعى ضد الزوج . وكان هناك أيضا نوع من الزواج المفكك الروابط بين العبيـد والطبقة الفقيرة ، يرجع الى قلة الـثروة ، ومع ذلك فقد كانت العقوبة شديدة عــــلى فساد الأخلاق ، والواقع أن الزواج وتكوين العائلة كان الرابطة الفـريدة المحـترمة والطريق الوحيد المبنى على العقل .

وقـد كانت دائرة الزواج الداخلى متسعة حتى شملت زواج الأخ بأخته ، وكان هذا النوع من الزواج منتشرا بصفة خاصة بين الأسر المالكة أو الحا كمة ، فقد كانوا يمارسونه لمجرد الرغبة فى نقاء الدم وحفظ النسب .

لم تصل المساواة بين الذكر والأنثى الى أتمها فى أى شعب من الشعوب التالدة كما بلغت فى عهـــد قدماء المصريين ، لقد كانت الأم فى أول الأمر قطب دائرة العائلة ، لها الحقوق دون الأب ، لأن الأبوة واقعة مبهمة ، لا يمكن ثبوتها ، بخلاف الولادة فانهـا حادثة ظـــاهرة سهلة الاثبات دائما ، فالطفل لا يكون الا ولد

امه ، ولذا كانت قوانينهم لا تفرق بين الأولاد الشرعيين وغير الشرعيين ، وكان من نتيجة ذلك اتساع حقوق الأم ، بينما اقتصر حق الأب على التأديب . كان للمرأة مطلق التصرف فى شئون العائلة والأبناء ، وكان استقلالها منصوصا عليه فى القانون ، فكانت تملك حق البيع ومباشرة كل الأعمال القانونيه الممكنة من غير حاجة الى إذن زوجها ، وكانت كل ممتلكاتها تحت تصرفها وليس لزوجها أى حق عليها ، وكان لها فى الميراث نصيب الرجل ، فتأخذ الأخت من التركة النصف ولأخيها النصف الآخر .

القانون والأخلاق : كان القانون المصرى بعيداً عن مبدأ أخذ العين بالعين والسن بالسن كما هو الأساس فى جميع القوانين الأولية ، فقد حلت فى مصر الجمعية محل الفرد فى عقوبات الجرائم التى تقع على كل الأفراد ، وكانت الوظائف المجتمعة فى يد واحدة عند الأمم الأولية ، مفردة وموزعة بالتخصص الشديد عند المصريين .

كانت القوانين تحدد حقوق وواجبات الأفراد ، فكل من يقتل عمدا رجلا حراً أو عبداً يقتل مثله ، ودون النظر الى الفروق الموجودة بين الناس ، ثروة أو جاها ، وقد كان احترام الملك مطلقا ، فلا القوة ولا الزمن يهدم حقوقه ، وعلى هذا فلا وجود لسقوط الحق بمضى الزمن .

وينتخب المصريون قضاتهم من عظماء الأهالى ، وكان المتبع فى القضايا أن يكتب الشاكى تفصيلات شكواه ثم يطلع عليها المدعى عليه ويجيب كتابة عـلى كل تهمة فينكر أو يعترف ، ثم تترك للمدعى فرصة اخرى للرد عـلى المدعى عليه ، وتترك لهذا أيضا فرصة للرد عـلى المدعى وكل ذلك كتابة ، ثم يتفاوض القضاة ويصدرون حـكما يعلنه الرئيس ، فكانت القضـايا تباشر بهذه الكيفية لأنه كان من رأى المصريين أن المحامين يجعـلون القضايا غامضة بخطبهم ، وإن الخطابة وسحر الحركة ودموع المتهمين من شأنها أن تذهب بالقاضى الى الاغضاء عن القانون والحق .

أما أخلاق المصريين فكانت بوجـه خاص اجتماعية لينه ، فمبدأ الطاعة المتأصل فيهم كان قوام اعمالهم ، ولـكل واحـد منهم مكانه اللائق به ، فالملك يخص الآلهة بالاحترام ، والاحرار يحترمون الملك ، ويحـترم الأرقاء سادتهم ، ويحترم الصغـار الشيوخ . فكان اللطف والاحترام الأنسانى من أخص مظاهر علاقات المصريين بعضهم ببعض ، ومصدر هذه الخـلال لطافة المناخ وقوة تكوين المصريين .

الفن : من أروع مظاهر الحضـارة المصرية الفن المصرى ، فقـد كان اعرابا صادقا عن روح الشعب ، ولا عجب فقـد كان هم المصريين كل خالد أبدى من الأشياء ، فالحيـاة

الأرضية أقل أهمية من الخلود ، والجسم أقل أهمية من الروح ، فالقبر ابقى من المنزل . لذلك كانت منتجـــات العمارة المصرية أكبر وأبقى ماخلفـه الأقدمون فى الدنيا ، فاغلبهـا ضخم الشكل رزين القاعده ، صلب المادة . كانت هليوبوليس وطيبة وممفيس وغيرها من المدن الكبرى ملء بالأهرامات والمسلات والمعابد المشيدة على أعمدة صخرية تتصف كلها بالموازنة التــامة فيها ، تمد سطوحها الخارجية من القاعـدة فـتزيد فى طمأنينة البنـــاء وتوحى إلى المشاهـــد بفكرة الأبدية التى خالجت نفوس المصريين .

لقد رغب المصريون الدوام فى بناء المعـــابد والمقابر ، فالأولى بمثابة صلاة من الصخر وصيغ سحرية وأعمـــال خالدة دالة على العبـــادة يدوم بدوامها رضى الآله الذى اقيمت له . والمقابر تحمى المومياء ، فهى مساكن الأرواح وملجأها على الأرض ، فنزيلهـــا الصامت لايدركه الدمار مابقيت بقاياه مصونة فى عمق الجدث . أما منازل الأحياء فغـير عظيمة ولا ذات شأن حتى تكون ضخمة خالدة ، ولهـــذا قلت العناية بها .

أما النقوش التى زينت بها جدران المعـــابد والتى كشفت لنا عن تفصيلات حضارة المصريين فلها معنى خـــرافى حيث اعتقد المصريون أن تمثيل الميت بالنقش ذاهباً جائياً ، آكلاً

عاملا من شأنه أن يعينه على هذه الأعمال ومواصلاتها ، فيمدون بذلك فى وجوده لأنه لما صار ظلاً بعد الوفاة ، فانه يكتفى بالظل من الخدم والظل من الطعام والأثاث والآلات ، فالنقش بمثابة ظلال للمنقوشات . ثم لما كان الصنو لا يبقى بالقبر إلا مابقيت المومياء به فقد اتخذوا كل حيطة لصيانة هذه المومياء . وإذا حدث وفنى الجسم فان تماثيل الميت تقوم مقام مومياه ، فكان يراعى فيها محاكاة الشبه ، لذلك كان الحفار المصرى يمثل الطبيعة ويحاكيها ولايحيد عنها ، وهو أن أغفل اظهار العواطف المختلفة فقد كان رائده إيجاد العظمة والرزانة وطلب الخلود ، وهذه أهم مميزات الفن المصرى ، غير أن هذا الأسلوب أخذ يتغير فنحا نحو الرقة وجعل النقاشون همهم فى العمل للأثر لا للقبور ، وللزينة لا للدين ، ولتمجيد الملوك والآلهة لا لتوفير الحياة للصنو .

لقد أدرك المصريون قصر الحياة وغرور الأفراح فهاموا بالأشياء الخالدة وفضلوا الموت على الحياة لأن الحياة العوبة الزمن والموت فوز عليها ، عرف المصريون كيف يجعلون حياتهم شعرية وكيف يحتملون الموت ، راموا بث الحياة فى الأموات فنجحوا ، لأننا بنقوشهم ذكرناهم كما كانوا فى الحياة .

العلوم والمعارف : تعتبر الكتابة أول مظـــاهر المعرفة ، وقد كانت الكتابة المصرية فى أوائل عهدها كغيرها من الكتابات الأولية ، أشارات تعرب عن الأفكار ، لأن الناس ابتدأوا فى كل مكان فى تصوير أفكارهم بالرسم وكلما زاد تعقيد هذه الأفكار وبعد غورها ونوعت ، حل الرمز مكان التمثيل المادى ثم حلت الاشارة مكان الرمز وهى صورة مختصرة ، كان كاتب الهيروغليفية يعنى برسم العين ، عضو البصر ، ثم استخرج دلالتها على اسم الفعل فلما تقدم ودخلت أفكاره فى العموميات ، دل بالعين على المعرفة وبعـــد النظر وما اليهما ، لأنها أقرب الآلات إلى ذلك ، وعندما دعته الحـــاجة إلى سرعة الكتابة لم يعد يرسم العين إلا دائرة ساذجه فى وسطها نقطة ، وبهـــذه الكيفية تخلص المصريون القدماء من الرسم البحت الى الهيروغليفى ومن هذا إلى الكتابة اليدوية ، وهى على نوعين (الهيراطيقية) التى وجدت على أقدم البرديات و (الديموطيقية) وهى أكثر اختصارا ووجدت بين عهـــد الأسرتين الحادية والعشرين والخامسة والعشرين .

لم يبق لنا من علوم المصريين إلا مادون فى اثنتين أو ثلاث من ورق البردى وهو بسط لمبادىء أولية يرجح انها كانت للتعليم فى مدارس الأطفال . ولكننا إذا حكمنا على علم المصريين بآثاره ونتائجه رأينا أنه كان نهاية فى التقدم .

إننا لانكاد نعرف شيئامثلا من الهنـــدسة عند المصريين

ولكننا نستطيع الحكم ، إذا التفتنا الى تطبيقاتها بأنها كانت راقية ، فقد كان المصريون يعرفون تقدير سطح الارض تقديراً المعوا اليه كثيراً فى ورق البردى .

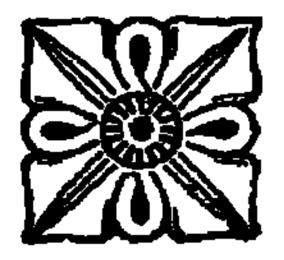
ونجهل مثلا طرق الرقابة والرصد عند المصريين فى علم الهيئة . لكننا نعرف انهم مهروا كل المهارة فى توجيه آثارهم وكانو على علم بمدار السنة ، ونفترض أيضا أنهم كانوا يعرفون المزولة ، لأننا على يقين من أن البابليين عرفوها وكانت للمصريين بهم صلة وقت الأغارات أو أيام الاتجار فأخذها عنهم البابليون . لقد تمكن المصريون بالارصاد الفلكية من تنظيم مدار السنة والشهور والفصول ، ودونوا أوجه النجوم واشراقها وغروبها ، وقسموها الى سيارات وكواكب وعرفوا اعظم النجوم وأسموها باسماء أشهر آلهتهم .

ولا نعرف ايضا تفصيلات الاجراءات الكيماوية الصناعية ولكننا ندرك أنها كانت عديدة معقدة لانهم استخرجوا بها المعادن المهمة ، وصنعوا الزجاج والميناء البردى والاعطار حتى الجواهر الصناعية والألوان والأصباغ والأخضبة التى لم تذهب ببهاءها آلاف السنين ، وكفى بفن التحنيط دليلا على رقى الكيمياء الصناعية .

بلغ التعلم فى مصر درجة عالية جداً ، وكانت المدارس تلحق بالمعابد ، ويتعلم المصريون فيها الكتابة والحساب

وحساب النجوم والهندسة والمعالجة بالطب والتعاويذ السحرية وتجهيز الادوية ، ويستظهرون الكتب المقدسة وشعائر الدين وكان معبد هليوبوليس أشهر هذه المعابد، حيث كانت به مكتبة هائلة تحتوى على آلاف الكتب ، ظلت موجودة حتى قضى عليها فى عصر البطالسة . وبالرغم من أن هذا المعبد كان معبداً دينياً ، الا أن المشتغلين به لم يقصروا جهدهم على الفلسفة الدينية والفكرية ؛ بل أدخلوا مع ذلك الطب والفلك .

لقد تناول المصريون جميع صور الحياة وعملوا فى كل فرع من فروعها بهمة عجيبة ، فازدهرت واينعت شجرة المعرفة . وتناولتها الشعوب الناشئة ، فكان هذا التراث بذرة المدنية وأصل الحضارة .



" مراجع الكتاب "

Arthur Thomson - *Biology & Human Progress.*

Breasted - *History of Egypt.*

Darwin - *The Origin of Species.*

Désiré Tits - *Initiation à la Biologie.*

Durkheim - *Les formes élementaires de la vie religieuse.*

Ellison Hawks - *The Earth.*

Eliot Smith - *In the Beginning.*

Emile Faguet - *De Dieu.*

Ernest Haeckle - *The Evolution of Man.*

Estlin Carpenter - *Comparative Religion.*

Frazer - *The Golden Bough.*

Giddings - *Elements of Sociology.*

Grant Allen - *The Ivolution of the Idea of God.*

Hnderson - *Biology.*

Harmsworth History of the World.

Harmsworth Popular Science.

Hartland - *Primitive Paternity.*

Hesse & Gleyze - *Notions de Sociologie.*

Hogarth - *The Ancient East.*

Keith - *The Antiquity of Man.*

Moret & Davy - *Des Clans aux Empires.*

Martindale - *The Religions of the world.*

Marett – *Anthropology.*

The Beginings of Morals & Culture.

Mankind in the Making.

Maspero – *L'histoire Ancienne des Peuples de l'Orient.*

Max Maüller – *Introduction to the Science of Religion.*

Myres – *The Dawn of History.*

Seignobos – *Histoire de la Civilisation.*

Spencer – *Principles of Sociology.*

Tylor – *Anthropology.*

Primitive Culture.

Wells – *A Short History of the World.*

Winwood Reade – *The Martyrdom of Man.*

Westermarck – *Origin & Development of the Moral Ideas.*

History of Human Marriage.

أصل الانواع ـ داروين ـ ترجمة اسماعيل مظهر

الجيولوجيا ـ حسن صادق

الحضارة المصرية القديمة ـ جوستاف ار ين ـ ترجمة محمد صادق رستم

مقدمة الحضارات الأولى ـ جوستاف لوبون ـ ترجمة محمد صادق رستم

علم الاجتماع ـ نقولا حداد

نظرية التطور وأصل الانسان ـ سلامه موسى

فهرس

